إحسان عبد القدوس

أيام شبابي

المكتب المصري الحديث

المقدمة

أيام شبابى

أحب ما أعتز به هو أن لى دائماً قراء فى سن الصبا . . السن التى تتأرجح بين العاشرة والعشرين . . وكل جيل منهم يكبر ويصبح جيل زوجات وأمهات وآباء . . وكلما التقيت بأحد أفراد الجيل الذى كبر أجده لا يحدثنى عما يقرأه لى الآن بل عما كان يقرأه لى فى صباه ، كأن ما قرأه هو جزء من ذكرياته التى لا ينساها ، وعنصر من العناصر التى أقام عليها شخصيته وتكوينه الفكرى . .

وهذا ما يجعلنى أحس بأنى أحمل نحوهم مسئولية أقرب إلى مسئولية الأب . . بل أنى غالباً ما أخاطبهم بلهجة وأسلوب الأب وأناديهم . . ابنتى . . أو ابنى . . وهو ما تعترض

عليه زوجتى لأن بين بناتى الآن أمهـــات لهن أحفاد . . وبين أبنائى رجال يخطون نحو سن المعاش . . ولكن زوجتى تعذرنى عندما تقدر اعتزازى بأن أكون أباً فكرياً وروحياً لأجيال بعضها يجمعنى بها نفس الجيل وبعضها أجيال جاءت بعدى..

والأب يفرح بنجاح أولاده . . وأنا أفرح عندما ألتقى بزوجة ناجحة وأم ناجحة تحدثنى عما كانت تقرأه لى قبل أن تتزوج وقبل أن تصبح أما . . وتروى لى ضاحكة كيف كانت تشترى روز اليوسف من مصروفهـــا الخاص ، وتقرأها سراً حتى لا يضبطها أبوها أو أمهـــا . . كان الجيل العتيق يحرم قراءة روز اليوسف على الأولاد والبنات حتى لا يعيشوا مع فكرى ويتأثروا به . . ولكن سنة التقـــدم والتطور هى دائمـــاً أقوى من أن يصدها القدامى المتجمدون فلم يستطيعوا أن يحرموا الجيل الجديد من قلمى . . وكنت أنا دائماً مطمئناً إلى أنى سأصل إلى قرائى . . حتى عندما كانت تشتد الحملات ضدى وضد ما أكتبه من دعوات وآراء اجتماعية وسياسية ، كنت مطمئناً إلى أنى سأجد قرائى ولو بعد أن أموت . ككثير من الكتاب الذين لم يصلوا إلى قرائهم إلا بعد أن ماتوا . .

والحمد لله فإنى لم أنتظر الموت حتى أصل إلى قرائى ! !

وقد سألت قارئتى التى أصبحت زوجة وأماً :

— هل تسمحين الآن بعد أن كبرت وتحملت مسئولية الأم . . هل تسمحين لأولادك وبناتك بأن يقرأوا لى . .

وقالت وهى تقبلنى بفرحتها :

— طبعاً . . إنك لا تدرى ماذا أعطيتنى . . لقد أعطيتنى صوراً كاملة صريحة من الحياة حتى أختار بينها . . وبذلك أغنيتنى عن أن أعرض نفسى للتجارب . . علمتنى التجربة قبل أن أخوضها وأعرض نفسى لتحمل فشلها . . ولذلك لم أفشل أبداً . . ولا أريد لبناتى وأولادى الفشل . . ثم لا أريد أن يقرأوك بعيداً عنى كما كنت أقرؤك بعيداً عن أمى وأبى . . ثم أنى سيدة مدبرة ولا أريد لأولادى أن يشتروك من مصروفهم الخاص . . كلنا الآن نقرؤك فى كتاب واحد أو فى جريدة واحدة . .

وليس معنى ذلك أن كل أبنـــائى من قراء القصص والخواطر الاجتماعية . . فقد كان فكرى السياسى أيضاً يعتبر

محرماً . . وهو فكر كما أحب أن أصوره يرتفع عن الواقع فى سبيل التطلع إلى المستقبل . . ولذلك فقد كان دائماً فكراً مرفوضاً من الواقعيين أو من الذين يكتفون بمسئولية الواقع ويدافعــون عنه . . كان فكراً مرفوضاً قبل الثورة ثم – رغم أنه ساهم فى إطــلاق الثورة – أصبح فكراً مرفوضاً أيضاً بعــد الثورة . . وقد تعرضت لكثير من الأحداث فى سبيل هذا الفكر . . تعرضت للاغتيال أربع مرات . وسجنت ثلاث مرات . . وكان ما يعوضنى دائماً أن هذا الفكر أقنع الكثيرين من الشباب ، وبعضهم تخلى عنه بعد أن تعدى سن الشباب ، والبعض الآخــر هم الذين ظلوا يشاركوننى الفــكر السياسى مهمــا استمر بهم العمر . وهؤلاء هم الأكثر نجاحاً فى الحياة السياسية لأنهم لم يتعرضوا لتقلبات الواقع ، ولم يعتبروا أن كل أهداف الفكر السياسى هو الوصول إلى مراكز ووظائف الدولة . .

وألتقى بالقراء السياسيين كما ألتقى بقراء الأدب . . وأشعر نحوهم بنفس المسئولية . . مسئولية الأب الفكرى ، وإن كنت بالنسبة لكثير منهم أشاركهم الأخــوة الفكرية لا الأبوة . . وكنت دائماً أفرح بهم وبمواقفهم ثم يحدث

أن يصل أحدهم إلى منصب من المناصب السياسية . . رئيس جمهورية أو وزير أو . . أو . . فيحدث نوع من التباعد بيننا ، لا تعمداً ، ولكن لأن فكرى السياسى دائماً أبعد عن المسئولية التنفيذية التى تفرضها المناصب ويفرضها الواقع . .

• • •

ولا شك أن أحد الذين عاشوا صباهم مع فكرى وقلمى هو الأستاذ أحمد يحيى فقد كان هو صاحب فكرة نشر هذا الكتاب . .

جاءنى يطلب نشر كلمات وخواطر فكرية سبق أن نشرتها فى روز اليوسف منذ أكثر من عشرين عاماً . .

كيف تذكر هذه الكلمات ؟

أنا نفسى قد نسيتها . .

ولكنها نعمة أن تحتفظ بقرائك منذ سن الصبا . فأحمد يحيى وهو الآن رجل ناجح صاحب دار نشر ناجحــة . . وليس مجرد صاحب دار ولكنه أيضاً صاحب أفكار فى تحديد الكتاب الذى يختاره وينشره . . وهو الآن يقرأ لى وهو فى هذه السن الكبيرة ولكنه لم ينس ما كان يقرأه لى وهو فى السن الصغيرة . .

وقد تعودت أن أتهم نفسى بعدم قدرتى على استغلال إنتاجى استغلالا يحتفظ به أمام القراء جيلا بعد جيل ، ولذلك لم أفكر فى جمع هذه الكلمات والخواطر فى كتاب . . ربما لأن تفرغى لروز اليوسف كان يدفعنى إلى الإحساس بأن روز اليوسف هى كتاب دائم . . كل من يريدنى يبحث عنى فى روز اليوسف . . ولكنى هاجرت من روزاليوسف وأصبح من يريدنى لا يدرى أين أنا . . فى دار الهلال أم فى أخبار اليوم أم فى الأهرام أم . . أم . . قلم يحمل عبء أفكارى ولا يدرى أين يلقى بها . .

إلى أن أنقذنى أحمد يحيى . . وقام يجمع ما كتبته وأنا أعيش العشرينات والثلاثينات من عمرى . .

وكنت أدهش وأنا أراجع ما تجمع . . ودهشتى تنبض بالفرحة كأنى أرى صورتى وأنا صغير . . ولكنى لم أكن صغيراً بالنسبة لنفسى . . فكل الأفكار التى سجلتها وأنا فى هذا العمر البعيد لم تتغير بعد أن وصلت إلى العمر الذى أنا فيه . . عمر الستين . . وليس معنى ذلك أنى لم أتطور . . لا . . ولكن أفكارى ولدت معى وهى

ترفض الاستسلام للواقع متطلعة إلى المستقبل . . ترفض القديم . . وترفض التقيد بالتقاليد . . وترفض الخوف الاجتماعى . . ولذلك . . فمهما طال الأمد عليها فهى لاتزال أفكاراً جديدة . .

وهذه المجموعة من الكلمات التى يضمها هذا الكتاب معظمها كلمات حول المجتمع وحول التحليل العاطفى وقد دفعتنى هذه المجموعة إلى أن أراجع ما كنت أكتبه تعبيراً عن فكرى السياسى أيام شبابى . .

غريبة ! !

إن فكرى السياسى لم يتغير هو الآخر حتى اليوم . .

ربما لأن كل ما اقتنعت به سياسياً فى شبابى وعشت مقتنعاً به لم يتحقق حتى اليوم . .

وبعد أن تتحقق الأحلام يبدأ الفكر فى البحث عن أحلام جديدة . .

إنى فرح بهذا الكتاب . .

لأنه نبضات أيام شبابى . .

إحسان عبد القدوس

صناعة الإنسان

إننا نحاول أن نصنع الإنسان . .

وأصعب مهمة تواجه المفكرين عندنا هى صناعة الإنسان . .

وصناعة الإنسان ، كأى صناعة أخرى ، تبدأ بتجميع المواد الخام ، ثم تنظيفها وغسلها مما علق بها من الأتربة والمواد الغريبة ثم صهرها ، ثم تشكيلها فى الأداة التى نريدها والمواد الخام فى الإنسان هى : الأفراد . .

والأفراد فى حاجة إلى عمليات « غسيل مخ » من رواسب المعتقدات الخاطئة ، والتقاليد المغلقة ، والتفسيرات الدينية التى لا تتفق مع الفهم الصحيح للدين ، والمذاهب السياسية الدخيلة التى حاول الأجنبى أن يطمس بها عقولنا ، ويقيم منها سجنا لتفكيرنا لا نستطيع أن نفر منه . .

وبعد ذلك تأتى مرحلة الصهر . . أو مرحلة ملء « فراغ العقيدة » . . أى أن نضع فى عقول الأفراد ، فهماً جديداً للحياة . . وأن نبصرهم بالطريق الذى يسيرون فيه . . وأن نضع لهم الدافع على العمل ، والهدف الذى يعملون من أجله . . وهذه هى أصعب المراحل . .

وهى مرحلة تقوم على دراسة مبادئنا ، والنظريات التى وصلنا إليها ، والفلسفة التى اعتنقناها . . ثم تعميق هذه النظريات ، وتحليلها ، والتبشير بها ، وإيصالها إلى عقول الأفراد وإدخالها فى حياتهم اليومية وفى أسلوب تفكيرهم . .

وبمعنى آخر : أن نجعل من هذه المبادىء والنظريات وعياً سياسياً عاماً .

ولا يكفى لكى نصنع الأفراد أن نجعل منهم مهندسين وعمالا وأطباء . . إن المهندس الذى لا يتمتع بوعى سياسى يصبح مجرد كاتب حسابات . . لا يستطيع أن يدفع الحياة فى البناء الذى يشرف على تصميمه ، ولا يستطيع أن يجعل من هذا البناء قطعة من مستقبلنا السياسى والاجتماعى . .

والطبيب الذى لا يتمتع بوعى سياسى لا يستطيع أن يساهم فى العمل الكبير الذى نقوم به . . إنه قد يستطيع أن يعالج مريضاً ، ولكنه لا يستطيع أن يشترك فى معالجة شعب من المرضى .

وأول خطوة يجب أن تتخذ لنشر الوعى ، هى تعريف الأفراد ببلادهم . . فإن النظريات والمبادىء التى اخترناها تظل معلقة فى الهواء ، إلى أن توضع على أساس واقع بلادنا الواقع كما هو . . بلا مبالغة . . وبلا تفخيم . . الواقع الصادق ، فدراسة المجتمع ، ودراسة الواقع ، هى أساس الإيمان بأية نظرية أو مبدأ سياسى . .

وقد قال نهرو أنه اكتشف نفسه عندما اكتشف الهند . .

وسيكتشف الأفراد أنفسهم ، عندما يكتشفون بلادهم . . وواقعهم . .

* * *

من الذى يقوم بنشر الوعى الجديد ؟

إن العبء الأكبر فى نشر الوعى ، يقع على الجامعات والكليات النظرية فى الجامعات ، قبل الكليات العملية . .

ونحن منذ بدأنا حركة التصنيع ، ونحن نتجاهل أهمية الكليات النظرية . . كلية الآداب وكلية الحقوق . . بل ننسى أهمية الدراسة النظرية كلها . .

إننا فى اندفاعنا نحو التصنيع ، لم ننس الزراعة . .

وكذلك فى اندفاعنا نحو الدراسات العملية يجب ألا ننسى الدراسات النظرية . .

لن يكفينا التصنيع ، إذا نسينا الزراعة . .

ولن تكفينا الدراسة العملية ، إذا نسينا الدراسة النظرية . .

والدراسات النظرية هى التى تعد الذين يصنعون الإنسان . . تعد الذين يبشرون بالوعى الجديد . . والأفكار الجديدة . . والمجتمع الجديد . . وهؤلاء لا نستطيع أن نصنعهم إلا فى الكليات النظرية . . فى كلية الآداب ، وفى كلية الحقوق . . إلخ . .

وما أطالب به هو توجيه عناية خاصة إلى برامج الدراسات فى الكليات النظرية ، بحيث نستطيع أن نجد بين خريجيها من يقوم بمهمة نشر الوعى الجديد .

وفى كل مكان نحتاج فيه إلى واحد من خريجى الكليات العملية سنحتاج فيه إلى واحد من خريجى الكليات النظرية . . واحد يصنع البناء ، ويدير المصنع . . وواحد يصنع الإنسان ، ويدير التفكير . .

وأكثر من ذلك . .

إنى أطالب بأن تخصص فى كل مصنع حلقة دراسية . . يجتمع فيها العمال والمهندسون والموظفون الإداريون ساعة فى اليوم وأن تحسب هذه الساعة ضمن ساعات العمل . . وأن يعين فى كل مصنع واحد أو أثنان من الأساتذة المتخصصين فى العلوم السياسية والاجتماعية ، يتوليان إدارة الحلقة الدراسية والإشراف على نشاطها ، تماماً كما يعين مهندسو المصنع وعماله وإداريوه . .

إننا بذلك نستطيع أن نقيم صناعة الإنسان . .

مظـــلوم

بدأت الحملة من جديد على الشباب وبدأت الاتهامات تنهال عليه . . الميوعة . . والانحلال . .

ويبدو أن هذه الحملة تعتمد على مظهر الشباب لا على حقيقته . . الشاب الذى يرتدى قميصاً وبنطلوناً ، ويفتح صدر القميص ويدلى البنطلون إلى أسفل خصره . . هو شاب مائع . . والشاب الذى يرقص هو شاب بايظ والشاب الذى يحادث فتاة على شاطىء البحر هو شاب منحل . . و . . . و . . . وهذا حرام . .

إن كل هذه مظاهر اجتماعية ، وهى ليست مظاهر الشبان بل هى مظاهر العصر . . مظاهر لا تدل على واقع الشباب ولا على حقيقته . . إنما هى الطلاء الخارجى للمجتمع الذى نعيش فيه . .

والصورة التى نراها اليوم للزعيم مصطفى كامل . . هى صورة شاب أنيق يميل طربوشه إلى جانب رأسه ويضع فى رباط عنقه دبوساً من الماس ، ويرفع شاربه بالكوزماتيك ، ويمسك فى يده عصا أنيقة ورغم ذلك فلم يكن مصطفى كامل شاباً منحلا ولا مائعاً . .

كان زعيما وطنياً استطاع أن يجمع كل الشعب وراءه . . إنما كان مظهره هو مظهر عصره . . مظهر الشباب فى عصره . .

وأيزنهاور يرتدى قميصاً ملوناً . . ألوانه فاقعة كأنها الصواريخ . . ورغم ذلك فأيزنهاور ليس شاباً مائعاً . .

إنه ليس شاباً على الإطلاق . . إنه عجوز جاوز السبعين ولكن هذا الرداء هو مظهر من مظاهر العصر . . مظهر لا يقلل من قيمة أيزنهاور . . ولا يزيد منها . .

وحتى ثلاثين عاماً مضت . . كان الشاب الذى يرفع رأسه إلى نافذة بنت الجيران ، يعتبر شاباً منحلا . . ولكن بنت الجيران نزلت اليوم إلى الشارع ، أصبحت زميلة للشاب فى الدراسة ، وفى العمل تجلس بجانبه ثلاثة أرباع اليوم . . فأصبح من الطبيعى أن يرفع رأسه إلى نافذتها ويلوح لها بيده . . ويبتسم لها . . دون أن يكون شاباً منحلا . . فهذا التآلف بين الجنسين ، هو مظهر من مظاهر العصر . . هو المجتمع الجديد . .

والرقص . . إن الرقص أيضاً أصبح مظهراً اجتماعياً . . كثيرون لا يرقصون ، ولكن كثيرين أيضاً ، يرقصون . . ولا يعيب الشاب أن يرقص ولا يزيده الرقص فخراً . .

والذين يرقصون ليسوا الشباب وحدهم . . إنهم الرجال أيضاً . . والعواجيز . . طبقة كاملة من أنجح رجالنا لا يجدون عيباً فى أن يراقصوا نساءهم ، ويترددوا بهن على الحفلات الراقصة . . رجال أعمال ناجحون . . وكتاب ناجحون . . و . . . و . . . وإذا كان العواجيز يرقصون التانجو ، والشباب يرقصون الروك آند رول . . فليس هذا دليلا على أن العواجيز أعقل من الشباب . . إنهم فقط أقل نشاطاً ، وأضعف أجساماً . .

وأنا لا أنفى أن هناك انحلالا . . وجرائم . . ولكن يجب أن نفرق بين الانحلال ، وبين مظاهر العصر . . بين الجريمة وبين القميص المفتوح ، والرقص والاختلاط على شواطىء الاسكندرية . . ويجب أن نعطى شبابنا حقه . .

إن شباب اليوم خير من شباب الأمس . . هـــذه هى الحقيقة . .

وشباب اليوم يجند كله فى الجيش ، ولكن ليس معنى هذا أن نطلب منه أن يعيش حياته كلها فى طابور عسكرى وأن نحرمه من مظاهر عصره . . يكفى أن نطمئن إلى أن هذه المظاهر تضم تحتها فتياناً أقوياء الروح والعقل . .

وشباب اليوم يحمل من المسئوليات أكثر مما حمله أى جيل مضى . . إنه يحمل مسئوليات لم تكن تخطر على بال جيل مضى . . وقد استطاع أن يحملها . . وراجعوا نتائج الامتحانات وراقبوا الشباب فى المصانع . . وفى دوائر الأعمال . . ولا تكتفوا بمراقبته فى أوقات فراغه . . حتى تعرفوا لماذا أفخر بشباب بلدى . . ولعلكم لا تعلمون أن بطل الروك آند رول فى الجامعـــة . . هو من أوائل الناجحين فى كلية الهندسة هذا العـــام ! !

وبعـــد ! . .

إن الذين لا يطيقون الشباب ، هم الذين لا يطيقون أن يعيشوا فى هـــذا العصر . .

حب النفس

إن حب النفس لا يعنى دائماً (الأنانية) ولا يعنى (الفردية) . . ولا يعنى (الانعزالية) إنك لن تستطيع أن تحب الناس إلا إذا أحببت نفسك أولا . . لو كرهت نفسك أو لو سخطت على نفسك فستكره الناس كلهم وتسخط على الناس كلهم .

وحب الناس هو حب الحياة . . وقد خلق الله الحياة لنحبها ونسعد بها . . والذى يكره الحياة ويتمنى الموت ليس زاهداً ولا يسعى للتقرب إلى الله . . ولكنه يتمرد على الله . . ويكفر بنعمة الله . .

وحب الحياة هو أن تحب كل الناس الذين يكونون الحياة أخيارهم وأشرارهم . . . وفقراؤهم وأغنياؤهم . . وأذكياؤهم وأغبياؤهم . . وهو حب نفسك لأنك جزء من الحيـــاة . .

إن الحب قوة . .

والنفس التى تحب هى النفس القوية . .

وصاحب النفس القوية لا يكره نفسه ولا يسخط عليها ، بل يعتز بها ويثق ويغامر بها ويحمد الله عليها .

* * *

قلت هـــذا الكلام لنفسى وأنا أعانى أزمة نفسية أسميها « أزمة ديسمبر » .

في كل ديسمبر أصاب بهذه الأزمة .. أحس بشيء يكاد يخنقني وأحس كأني أموت .. انتهيت .. أحس بالسخط على نفسي .. وكراهية نفسي وعدم الثقة في نفسي .. كأني فقدت كل أماني ولم يعد لي باب ألجأ إليه إلا باب الموت ..

لماذا .. لماذا في ديسمبر بالذات !

ربما لأن ديسمبر هو نهاية العام .. هو الشهر الذي أضع فيه ميزانية نفسي .. هل كسبت أم خسرت .. هل فشلت أم نجحت .. ماذا صنعت بهذا العام من عمري .. ماذا صنعت للناس ؟ ولنفسي ..

وألتفت خلفي .. فلا أرى إلا أخطائي .. وقد تكون أخطاء صغيرة ولكنها تبدو كبيرة .. كبيرة تنتصب أمامي كالأشباح المخيفة .

وألتفت خلفي، فلا أرى إلا أخطائي .. وقد تكون قصيرة كأني لم أتحرك .. كأني لازلت مكاني .. وأعود أنظر أمامي .. فأرى الطريق لا يزال طويلا .. طويلا مزروعاً بالشوك .. تعترضه الصخور .. وكثيرون قد سبقوني فيه .. بعضهم وصل إلى القمة وبعضهم قريب من القمة .. وأنا لا زلت مكاني وأصرخ : لماذا أعيش .. ما جدوى حياتي .. ما ذنبي لأولد .. لماذا خلقت ؟

وأثور على نفسي .. هذه النفس الضعيفة .. النفس القلقة .. الحائرة .. العاجزة .. وأكرهها .. أكره نفسي .. وأفقد الثقة فيها .

وعندما أكرهها .. تتزعزع ثقتي في الحب .. يخيل إلي أن الحب هو سبب ضعفي .. وأني أصفح عن الذين يؤذونني لأني ضعيف .. لا لأني قوي يخيل إلي أن الحقد هو الذي يدفع إلى التقدم لا الحب ولا الصفح ولا التسامي .. وأن الشر هو سلاح الحياة لا الخير ولا التعفف ..

وتشتد بي الأزمة وتمتد يد من صدري وتقبض على حلقي ويد أخرى تخنق عقلي .. فأقضي ساعات طويلة وأنا أشبه بالمشلول .. لا أفكر ولا أعمل ولا أنطق ولا أنام .. فقط أتعـذب ..

وتنتهي الأزمة .. فأسقط ضعيفاً كأني مريض ومن خلال ضعفي أعـود وأحاسب نفسي مرة ثانية كأني أتشبث بالحياة وألتمس لها الأسباب ..

وفي المحاسبة الثانية تتكشف لي أشياء لم أرها في المحاسبة الأولى .. إن حياتي ليست كلها أخطاء .. وأخطائي ليست كبيرة كما رأيتها لأول مرة .. وقد تقدمت في الطريق .. تقدمت كثيراً .. وفي خطوات واسعة .. والطريق أمامي قد يكون مزروعاً بالشوك مليئاً بالصخور ولكنه أسهل من الطريق الذي قطعته .. وأنا أسير فيه بحذاء متين يحمي قدمي .. حذاء من تجاربي .. ومن مبادئي ولا أحد قد وصل إلى القمة قبلي .. إن الذين وصلوا إلى القمة لا يراهم أحد .. لأن القمم فوق السحب .

وهؤلاء الذين أمامي لا يزالون يسيرون هم أيضاً يسيرون مثلي .. لا أحد يتوقف عن السير ..

إن التوقف عن السير هو الموت .. أما الحياة فهي خطوات .. دائماً خطوات .. ليس في الحياة مكان للجلوس .. ليس لها قمة نجلس عليها .. إن القمة وراء الحياة ! !

إن المحاسب المدقق هو الذي يراجع حسابه مرة واثنتين وثلاث مرات .. وفي كل مرة قد يكتشف خطأ في الحساب .. وقد اكتشفت أني ظلمت نفسي في المحاسبة الأولى ..

إني لست ضعيفاً .. ولست سيء الحظ .. ولست فاشلا .. وقد صنعت بحياتي ماقدمته للناس ولنفسي وهذه الليالي الطويلة التي قضيتها في مكتبي لم تضع

عبثاً فقد ساهمت فى إسعاد الناس وإسعاد نفسى . . وعدت أحب نفسى . . وأثق بها . . وأحمد الله عليها .

وعندما أحببت نفسى . أحببت الحياة . . وأحببت مبادئى فى الحياة . . وأحببت الحب . .

إن الذين يؤمنون بالحب . يؤمنون بالحياة . . ويؤمنون بأنفسهم . .

إن الذين يدعون للحب يوفرون على الناس وعلى أنفسهم . عذاب الحقد ، وعذاب الكراهية . والذين يدعون للسلام يوفرون على أنفسهم عذاب الحرب .

فى إنتظار المجهول

منذ عشر سنوات كانت الفتاة المصرية التى تراقص رجلا فى محل عام حتى لو كان زوجها . . تعتبر زانية ويرجمها الناس بألسنتهم . .

والآن أصبح من حق كل فتاة أن تراقص الرجل وأن تتمايل معه على أنغام التانجو والرومبا والمامبو . .

وانعكس هذا التطور على موسيقانا . فأصبح عبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وهدى سلطان وشادية يغنون للراقصين والراقصات لا الجالسين على المقاهى والجالسات على الشلت !

وأصبحت الألحان تدور حول السامبا والووجى بوجى والبايو بعد أن كانت تدور حول الرصد والصبا والحجاز كار . .

حدث هذا فى كل أنحاء العالم ودخلت موسيقى الزنوج الراقصة إلى إيطاليا وفرنسا والهند وبريطانيا وأصبحت شيئاً لا يستغنى عنه كالحلل الإفرنجية والسيارات وفرش الأسنان . .

كلها أشياء مستوردة من مدنيات أجنبية . ولا يفكر أحد فى محاربتها باسم الوطنية . كما لا يفكر أحد فى المطالبة بخلع الحلل الأفرنجية وارتداء الجبة والقفطان ، أو بإبطال فرش الأسنان واستعمال السواك ! !

ولكن هل معنى هذا أن هذه الألحان أصبحت تعتبر موسيقى مصرية صميمة ؟ !

أبـــداً . .

إنها ستظل دائماً موسيقى أجنبية ، وسيظل اسمها دائمـاً سامبا أو رومبا ، مهما وضعنا عليها اسم عبد الوهـــاب . . وكما يكتب الترزى على دكانه « ترزى أفرنجى » .

سيكتب عبد الوهاب على بطاقته « موسيقار أفرنجى » ! !

ومهما اقتبسنا من المدنيات الأجنبية فسيبقى فينا دائماً شىء مصرى . . شىء يعبر عن الشخصية المصرية . . هذا الشىء لم تستطع موسيقانا أن تعبر عنه حتى اليوم . . وهذا الشىء هو الذى يحفظ الشخصية الموسيقية الإيطالية . . مثلا . . حتى اليوم رغم اكتساح التانجو والمامبو لشوارع روما ونابلى . .

وما يسمونه « موسيقى شرقية » لم تكن أبداً موسيقى مصرية والتواشيح والبشارف والتحاميل ومخلفاتها ليس فيها شىء من مصر . . ليس فيها شىء يعبر عن فلاح مصر أو العامل فى مصر أو نساء مصر . . إنها موسيقى أجنبية أيضاً دخلت مصر فى عهد الأتراك وتأثرت بها الطبقة التى كانت تجارى الأتراك فى مدنيتهم ثم تأثرت بها الطبقات الأخرى بحكم تقليدها لطبقة الأسياد .

والوحيد الذى استطاع أن يخلق موسيقى مصرية صميمة هو « سيد درويش » . . كان يرسم بموسيقاه صورة الغزل فى حـــوارى القاهرة بلحن « على أد الليل ما يطول » . . ورسم صورة لشيالين محطـــة مصر بلحن واضح معبر لا يمكن أن يكون إلا لحناً مصرياً . . ولحن الحشاشين ، والعربجية . . و . . إلخ .

كان سيد درويش الوحيد . . واستطاع عبد الوهـــاب أن يقترب منه كثيراً فى بعض أغانيه القديمة ، ثم ابتعـــد عنه كثيراً بعد أن تخصص فى الألحان الراقصة . .

كما اقترب منه كثيراً زكريا أحمـــد ومحمود الشريف وأحمد صدقى وإن كان كل من الثلاثة واقعاً تحت ظروف نفسية عنيفة نتيجة اكتساح الألحان الأجنبية للشارع . .

وبعـــد . .

إنى واثق أن الموسيقى المصرية ستخلق قريباً وستطفو على السطح ، فإن هذا المجهود العنيف الذى تبذله مصر لتكوين شخصيتها المميزة لابد أن ينجح أيضاً فى خلق شخصية موسيقية مميزة . .

من يخلق هذه الشخصية ؟

من هو الفنان الذى سيرسم بألحانه صورة مصر ؟ . .

لا أدرى . .

وكما انتظرنا طويلا حتى ظهر شخص لا تعرفونه ليقود ثورة يطرد بها الملك التركى ويخلق شخصية الحاكم المصرى الصميم فسننتظر إلى أن يظهر الفنان الذى يقود ثورة ليطرد بها الموسيقى الشرقية ويضع مكانها الموسيقى المصرية .

ولابد أن هناك . . فى أحد أركان القاهرة أو فى إحدى قرى الريف ، ولد العبقرى المنتظر !

الذين لا يعبدون شيئاً

هل تعرف أن الفرق بين الفيلسوف والعالم ، أو بين الفلسفة والعلم ؟ !

إن العلم يسأل : كيف ؟

والفلسفة تسأل : لماذا ؟

هذا هو كل الفرق

فإذا سألت نفسك كيف أتزوج ؟ فانت عالم . . وإذا سألت نفسك لماذا أتزوج فأنت فيلسوف ! !

فإذا كنت عالماً فستعتمد على حواسك فى البحث عن زوجة .. عينيك وأذنيك وعيون وآذان الآخرين الذين سبقوك فى الزواج وضعوا سلسلة من التجارب أما إذا كنت فيلسوفاً فإنك ستنطلق بعقلك وحده إلى أن تضع نظرية ثم قد تتزوج أو لا تتزوج .

وقد بدأ الإنسان عالماً يسأل نفسه كيف يحمى نفسه من الوحوش وكيف يتقى تقلبات الطبيعة وكيف يحصل على قوته وكيف يدبر ملبسه وكيف يتغلب على عدوه وكيف هذه هى التى أدت إلى اختراع الآلات وإلى اكتشاف القنبلة الذرية . .

ثم بدأ الإنسان بعد أن توفرت له سبل الراحة وبعض أوقات الفراغ يسأل نفسه لماذا أجوع ولماذا المطر ولماذا البراكين ولماذا المرض ولماذا تهاجمنى الوحوش . . . إلخ . .

وفى الوقت الذى توصل فيه العلماء إلى وسيلة لقتل الوحوش لأنهم عرفوا كيف يقتلونها توصل الفلاسفة إلى نظرية استئناس الوحوش لأنهم عرفوا لماذا تتوحش الوحوش ! !

وفى الوقت الذى كان العلماء فيه يؤكدون أن الأرض منبسطة لأن حواسهم التى يعتمدون عليها فى إيجاد جواب كيف لم توصلهم إلى أكثر من ذلك فى هذا الوقت قام فيلسوف يؤكد أن الأرض كروية لأن عقله المنطلق وتسلسل لفظ لماذا فى ذهنه أدى به إلى اكتشاف حقيقة لا تدركها الحواس . .

وعندما عجز العلماء عن إثبات نظرية كروية الأرض بحواسهم — فى ذلك الوقت — قتلوا الفيلسوف الذى نادى بها ! !

وكان العلماء عندما يعجزون عن اكتشاف المجهول يعبدونه وبذلك نشأت عادة الزلف وإقامة الشعائر للمجهول . . عبدوا المطر عندما عجزوا عن السيطرة عليه . . وعبدوا الشمس والبراكين والوحوش . . وعبدوا البقر لأنهم عجزوا عن اختراع بقرة . . ثم عبدوا الملوك والأباطرة والأسياد لأنهم عجزوا عن السيطرة عليهم واختراع آلة تريحهم منهم ! !

أما الفلاسفة فلم يعبدوا شيئاً لأنهم لا يسعون إلى السيطرة على المجهول ولكنهم فقط يحاولون مناقشته .

ونحن جميعاً إما علماء أو فلاسفة . . فالرجل العادى الذى يسأل نفسه كيف يصلح حنفية الماء هو عالم . . والرجل العادى الذى سيقول خليها على الله هو فيلسوف يؤمن بنظرية فلسفية معروفة تسمى الفلسفة الجبرية وهى نظرية ملخصها أن الكون كله بما عليه ومن عليه مسير ولا مخير . . وإن الإنسان يموت فى موعد

محدد ولن يموت قبل هذا الموعد حتى لو ألقى بنفسه تحت عجلات قطار أو قفز من برج الزمالك . . وكل ناحية من نواحي الحياة تحتاج إلى تعاون الفلاسفة والعلماء . . تحتاج إلى لمــاذا وكيف حتى الثورات . . فلاسفة الثورة يسألون : لمــاذا الثورة ويصلون إلى جواب نظرى . . وعلماء الثورة يسألون : كيف تقوم الثورة ويقومون بها فعلا .

فجمال الدين الأفغانى وجان جاك روسو وماركس من فلاسفة الثورة وسعد زغلول وعبد الناصر من العلماء .

ثم هناك فرق بين المحيط الذى يمكن أن يعيش فيه الفلاسفة والمحيط الذى يمكن أن يعيش فيه العلماء . .

الفلاسفة لا يعيشون ولا يظهرون إلا فى محيط الحرية المطلقة . . لأن العقل لا يمكن أن تحده حدود ولا يمكن أن ترسم له اتجاهات التفكير كما أن المنافسة الفلسفية لا يمكن أن تنتهى عند حد معين تقف عنده . . ولكن العلم الذى يعتمد على مشاهدات وتجارب الحواس ، ويقبل أن يرسم له خط السير والعلماء يمكنهم دائماً أن يغمضوا عيونهم عندما يؤمرون ويفتحوها عندما يطلب منهم فتحها فلم يظهر مثلا فلاسفة فى عهــد هتلر إنما ظهر فيه علماء يبنون المصانع ويخترعون ويقيمون العمارات ويضعون الأسس الاقتصادية . . . إلخ !

وفى أمريكا اليوم يحــارب ماكارثى الفلاسفة بما فيهم شارلى شابلن بينما تفتح الحكومة خزائنها للعلماء . . والعالم الذى يفكر فى أن ينقلب إلى فيلسوف

يقضى عليه كما حــدث العالم الذرى الكبير أوبنهايمر عندما بدأ يسأل نفسه لمــاذا يصنع القنبلة الذرية . .

وبعــد . .

فعذرى فيما كتبته أنى كنت أقرأ هذا الاسبوع كتاباً فلسفياً عن البراجماتيزم . . ولن أقول لكم ما هو هذا البراجماتيزم ولكن فقط أعيدوا قراءة السطور فقد تصلوا إلى ما أعنيه . .

من هو الكاتب الحر..؟

اتفقت مع الأستاذ توفيق الحكيم أن نقيم ندوة ، لنناقش موضوع : من هو الكاتب الحر .

وكان هذا الموضوع قد أثاره توفيق الحكيم نفسه فى كتابه تأملات فى السياسة . . الذى سيصدر بعد أيام فكتب يرسم صورة الكاتب الحر :

« الكاتب الحر الحق هو الذى يبقى بعيداً عن الحركات الحزبية والسياسية كى يستطيع فى كل وقت أن يدافع بمنطلق الحرية عن المثل العليا للإنسانية ولا يؤازر المذاهب والأشخاص إلا على قدر احتفاظها بروح هذه المثل » . .

ثم يقول :

« الكاتب الحر فى نظرى هو الحكم النزيه فى حلبة اللاعبين ، هو الذى يحصى الأخطاء بغير تمييز ولا تحامل وهو الذى يفضح سر الخارجين على أصول اللعب القديم » .

وأخذت أنا أفكر فى شروط ومواصفات الكاتب الحر ! !

وبدأت بأن ساءلت نفسى : هل استطعت أن أكون كاتباً حراً ؟ فتبينت أن هذا التساؤل كان مدار حيرة نفسية كبيرة أضعت خلالها أجمل سنوات شبابى ! !

كنت قد بدأت أعد نفسى للكتابة السياسية عقب تخرجى فى كلية الحقوق وكانت السياسة فى نظرى مجموعة من الزعماء ومجموعة من الأشخاص . . وكان هؤلاء يحجبون عنى كل المثل العليا وكل المبادىء السياسية التى وعيتها . .

كنت أؤمن بالمثل العليا وبالمبادىء المطلقة كالحرية ، والحق ، والشعب ، ولكن كنت لا أراها ، ولا أرى طريقاً مرسوماً فى عقلى . . لم أكن أرى إلا هؤلاء الأشخاص وكان أقربهم إلى قلبى المرحومان : أحمد ماهر والنقراشى . . كنت مؤمناً بأحمد ماهر والنقراشى مؤمناً بوطنيتهما ونزاهتهما وإن لم أكن متحمساً فى إيمانى إلى حد التعصب الحزبى . . ثم حدث فى عهد وزارة النقراشى باشا أن كتبت مقالا أهاجم فيه اللورد كيلرن وأطالب بطرده من مصر . . وبعد ساعات من ظهور المقال قبض على النقراشى وأودعنى السجن وصادر المجلة .

وجلست يومها فى الزنزانة رقم ٦ بسجن الأجانب أفكر لأول مرة تفكيراً جديداً على وكأنى صحوت بعد سبات عميق استغرق كل عمرى . .

ساءلت نفسى : هل سجننى النقراشى لأنى هاجمت اللورد كيلرن ممثل الاحتلال وبطل حادث ٤ فبراير ؟

وهل معنى ذلك أنه أقل وطنية مما كنت أعتقد ؟ لماذا ؟ !

ربما كانت هناك أسباب وطنية تدعو إلى عدم مهاجمة اللورد !

ولكن . . لماذا أومن بالنقراشى أصلا . . ما هى الموازين التى أستطيع أن أحكم بها عليه ؟ ما هى الحدود التى أستطيع أن أختلف معه عليها أو أتفق معه عندها .

عشرات الأسئلة . . كلها تعبر عن حيرة ذهنية عنيفة . . وتبينت خلالها أنى لم أكن أحب النقراشي وأومن به إلا لأنه كان صديقاً لمجلة روز اليوسف لأنه وقف بجانب والدتى السيدة فاطمة اليوسف عندما أعلنت معارضتها للوفد . . وتبينت خلالها أن ثقتى فى وطنية النقراشي ونزاهته لا تكفى للإيمان به . . فالوطنية والنزاهة أمران مفروضان كمبادىء مطلقة ، كوجود الله . . وكما أن الإسلام والمسيحية واليهودية لا تختلف فى الاعتراف بوجود الله إنما تختلف فى تعاليم هذا الوجود وفى الطريق إلى الله ، كذلك الوطنية فقد يتساوى فيها الجميع من الزعماء والأحزاب ، ولكنهم يختلفون فى المبادىء والتعاليم التى تمليها عليهم وطنيتهم ، ويختلفون فى الطريق الذى تدفعهم إليه هذه الوطنية . .

فلا يكفى أن أومن بالزعيم لمجرد أنه وطنى ، أو نزيه ، أو حر . . بل يجب أولا أن أومن بمبادىء هذا الزعيم وأن أرى بوضوح الطريق الذى يسير فيه .

ولكن كيف أومن بمبادىء زعيم قبل أن يكون لى شخصياً إيمانى الخاص . . إيمان واضح محـــدد ؟ ؟

كيف أحكم على إنسان بأنه صادق الإسلام – مثلا – إلا إذا كنت أنا مسلماً صادقاً حتى أستطيع أن أعرف مدى إسلامه ومدى صدقه . . أومدى بعـــده عن الإسلام ومدى كذبه ؟ !

وخرجت من السجن لا حاقداً ولا موتوراً ولكن حائراً أبحث عن إيمانى السياسى كهذه البربرية التى خرجت إلى الغابة تبحث عن الله . . فى قصة برنارد شو . .

وتخبطت كثيراً فى حيرتى .. وتعبت كثيراً . . قرأت كل ما استطعت أن أقرأه من أول ماكيافيلى إلى كارل ماركس . . وجلست إلى كل من استطعت الجلوس إليهم من الزعماء ورجـــال السياسة . . واتصلت بأكثر الجمعيات الوطنية وكان بعضها فى أقصى اليمين وبعضها فى أقصى اليسار .

ومرت سنوات . . أكثر من أربع سنوات وأنا أعانى هذه الحيرة والشك يعصر رأسى ولكن – دون أن أتعمـــد – كنت أشعر بأن خيوط المبدأ الذى أومن به تثمر فى خيطاً بعد خيط إلى أن انبثق النور فى صدرى ووجدت إيمانى . .

وعندما آمنت بمبدأ استغنيت عن الإيمان بالأشخاص . .

أصبح كفاحى فى سبيل مبدئى هو كفاحى فى سبيل كل زعيم وكل شخص يؤمن بنفس المبدأ ، حتى لو لم أكن أعرف هذا الزعيم أو هذا الشخص . .

وأصبح الطريق أمامى واضحاً مستقيما مستقراً ، أسير فيه مع كل السائرين فيه وابتعـــد به عن كل الخارجين عليه . .

كنت أبدو أحياناً أنى من أنصار هذا الزعيم أو ذاك لأن هذا الزعيم أو ذاك يسير فى نفس الطريق ثم أبدو وكأنى خصم لنفس الزعيم لأنه خرج عن الطريق . . وفى كلا الحالين لم أكن أتعمد أن أناصر أحداً أو أخاصم أحداً بل كنت فقط متمسكاً بإيمانى مستقراً عليه . .

ولكن هل معنى هذا أنى أصبحت كاتباً حراً ؟

وهل معنى هذا أن الكاتب الحر هو الذى يؤمن بمبدأ معين ولا يؤمن بأشخاص معينين ؟ !

لا أدرى . . وربما أكون قد بدأت الموضوع من آخره وكان يجب أن أبدأ بالتساؤل : من الذى يحكم بأن الكاتب حر أو غير حر ؟ ؟

هل هو الرأى العـــام ؟

وهل معنى هذا أن الكاتب الذى يرضى عنه الرأى العام يصبح كاتباً حراً حتى لو ضحى فى سبيل ذلك بمبادئه وإيمانه ؟ وأن الكاتب الذى يثير سخط الرأى العام يصبح كاتباً غير حر حتى لو كان متمسكاً بإيمانه ومبادئه ؟ ؟

صدق توفيق الحكيم . . إننا فى حاجة إلى ندوة . .

الحب والنجاح

لى صديق من رجال الأعمال يسيطر عليه اعتقاد غريب فهو يعتقد أنه إذا نجح فى حياته الخاصة ، فشل فى حياته العامة . . وبالعكس ، إذا فشل فى حياته الخاصة ، نجح فى حياته العامة . .

وكل تجاربه فى الحياة تؤكد له هذا الاعتقاد : كان يعيش مع أمه . . وكانت أمه هى كل حياته ، وكل سعادته ، وكل راحته . وفجأة ماتت أمه . . ماتت فى حادثة . . وأحس أن حياته ضاقت حتى كادت تخنقه . . و . . وفى نفس الشهر الذى ماتت فيه أمه ، ربح أول صفقة كبيرة فى حياته . . صفقة تقدر قيمتها بعشرين ألف جنيه . .

ثم أحب فتاة . . وخطبها . . ثم اكتشف بعد أن خطبها أنها لا تحبه . . وفقدها ، وفقد معها قلبه ، وشخصه وثقته بنفسه . . وفى خلال شهور قليلة بعـد هذه الصدمة ، كان قد أسس شركة صناعية . . ونجحت الشركة . . وأصبح من كبار رجال الأعمال . .

وهو يحب الآن فتاة أخرى . . يحبها ملء قلبه . .

وأحبته . . ذابت فى حبه . . ولأول مرة منذ وفاة أمه يشعر بالسعادة فى حبه . . وقد بدأ فى نفس الوقت مشروعاً اقتصادياً ضخماً . . وهو خائف . . خائف أن ينجح فى حبه . . ويفشل فى مشروعه . . وخائف أن ينجح فى مشروعه ويفشل فى حبه . .

قلت له :

— أيهما تتمنى أكثر . . النجاح فى الحب ، أم النجاح فى المشروع . .

قــال :

— لا أدرى . . إنى أحياناً أرجو الله أن يحفظ لى حبى حتى لو فشل مشروعى . . وأحياناً أحس بإحساس خبيث أخجل منه . . أحس كأنى أتمنى أن ينجح المشروع ولو خسرت فى سبيله حبى وفتاتى . .

ثم استطرد قائلا فى حدة كأنه يثور على الله :

— ولكن لماذا لا أنجح فى الإثنين . . لمــاذا يصر الله على أن يعطى الإنسان بيد ويأخذ منه باليد الأخرى يعطيه من السعادة بقدر ما يعطيه من الشقاء . . ويخصص له من النجاح بقدر ما يخصص له من الفشل . . إذا أعطاه مالا أخذ منه صحته وإذا أعطاه سعادة زوجية أخذ منه سعادته فى عمله . .

وقلت له :

— إنه ليس الله ولكنها عملية توازن وتعويض تقوم بها أنت داخل نفسك . . ففشلك فى حياتك الخاصة يدفعك تلقائياً إلى محاولة النجاح فى عملك لتعوض النقص الذى اصبت به ، وكذلك فشلك فى عملك يدفعك تلقائياً إلى محاولة النجاح فى حياتك الخاصة فتبذل مــع زوجتك أو مع حبيبتك مجهوداً ، لم تكن لتبذله لو كنت ناجحاً فى عملك متفرغاً له بكل أعصابك وعواطفك .

قال :

— معنى هذا أن ليس هناك أمل فى أن أنجح فى الإثنين أى فى حياتى الخاصة وفى عملى ؟

قلت :

— هناك أمل كبير إذا استطعت أن توازن بينهما . .

أن تعطى لحياتك الخاصة من اهتمامك وتفكيرك ووقتك بقدر ما تعطى لعملك . .
وتذكر أن الحب يحتاج إلى ذكاء بقدر ما يحتاج إليه إنشاء مصنع . .

قــال :

ـ سأحاول . .

وقام وهو لا يزال يعتقد أنه لن يكتب له النجاح فى حبه إلا إذا كتب عليه الفشل فى عمله وبالعكس .

الــوهــم الــكبيــر

سيدة كريمة مثقفة زارتنى فى مكتبى لتحدثنى عن الحب .

قالت :

ـ إن الحب وهم كبير ننساق إليه . . وتستطيع دائماً أن تتغلب عليه بإرادتك !

قلت لهــا :

ـ إن معانى الحياة كلها أوهام وكلها تستطيعين أن تتغلبى عليها بإرادتك . . إن الوطنية وهم وتستطيعين بإرادتك أن تخونى وطنك والفضيلة وهم تستطيعين بإرادتك أن تنساقى وراء الخطيئة إنك بإرادتك تستطيعين أن تطفئ النــور وتعيشى فى الظــلام . .

قالت :

ـ ماذا تقصد ؟

قلت :

ـ إن رقى الإنسانية وتقدمها لم يتحقق إلا نتيجة محاولة الإنسان اللحاق بأوهامه . . وجميع أخطاء الإنسانية لم تقع إلا نتيجة هروب الإنسان من أوهامه ومحاولة التغلب عليها بإرادته . . إن الظــالم ليس إلا رجلا تغلب بإرادته على العــدل والقاتل ليس إلا رجلا تغلب بإرادته على الحياة .

ونابليون ليس إلا رجلا تغلب بإرادته على مبادىء الثورة الفرنسية . .

ونورى السعيد ليس إلا رجلا تغلب بإرادته على أوهــام العرب فى بناء مستقبلهم . .

إن الإرادة تستطيع أن تهدم كل من نعيش من أجله . .

قالت :

– إنك تعتبر الحب فضيلة ! !

قلت :

– إنه أبو الفضائل . .

قالت :

– إنى لا أحدثك عن الإنسانية ، أنى أحدثك عن الإنسان عن الفرد . . عن الحب بين الرجل والمرأة . .

قلت :

– هذا الحب أيضاً فضيلة . . إنه أرق مشاعر الفرد . . إنه ينبوع السعادة الحقة وينبوع الفن وأساس الرقى بالشخصية الفردية . .

قالت فى حــدة !

– ليس بين الرجل والمرأة فضيلة إلا الزواج . .

قلت :

– إن الزواج ما هو إلا إطار وضعه المجتمع للعلاقة بين الرجل والمرأة . . وقد يضم هذا الإطار لوحة تمثل الفضيلة وقد يضم لوحة تمثل الخديعة .. قد يكون إطاراً للحب وقد يكون إطاراً للنفاق . .

قالت :

– أى أنك تقر الحب بلا زواج . .

قلت !

– إن كل فنان يهمه أن يصنع إطار للوحته ولكنه إن لم يستطع أن يجد إطاراً فلن يقلل ذلك من قيمة لوحته .. فالإطار من صنع النجار واللوحة من صنع الفن .. الزواج من صنع الناس والحب من صنع القدر .. الزواج عقد تملك وامتلاك والحب ليس فيه عقود وليس فيه تملك إنه مجرد تجاوب روحى يرفعك فوق الماديات . .

قالت :

– إنك خيالى والمجتمع لا يستطيع أن يعيش فى خيال . .

قلت :

– إن المجتمع فى حاجة دائماً إلى الخيال ليندفع إلى الأمــام حتى المخترعات المــادية التى أصبحت اليوم حقائق . بدأت فى رؤوس أصحابها مجرد خيال – الراديو . . والفريجدير . . والغسالة الكهربائية . . والسينما والتلفزيون الملون والقنبلة الذرية كل هذه الحقائق بدأت فى رؤوس بعض الناس كخيال لا يصدقه المجتمع ولا يعيش فيه وسيأتى اليوم الذى يصبح الحب حقيقة يعيش فيها المجتمع لا مجرد خيال يحلم به بعض الفلاسفة سيأتى هذا اليوم ، وهو اليوم الذى يرتقى فيه الإنسان فيصبح ملاكاً . .

قالت :

– لقد خيبت أملى . . كنت أظنك رجلا واقعياً أستطيع أن أجد عندك حلا لمشكلتى !

قلت :

– لقد خيبت أمل الكثيرين . . كلهم يريدون منى أن أكون واقعياً ولكنى أرفض لأنى لا أجد السعادة فى الواقــع . أجدها فى خيالى . .

وخرجت غاضبة ! !

الرقص والشخصية

ما هو الفن ؟

إنه تعبير عن معنى . .

وكل ما يثيرك ويؤثر فيك من الفن هو معناه . . ولا يوجد فن بلا معنى . . لا توجد موسيقى بلا معنى ، ولا رسم بلا معنى ، ولا أدب بلا معنى ، ولا رقص بلا معنى . . وقد يكون معنى وضعياً ، أو معنى تعبيرياً . . أو معنى واقعياً أو معنى رمزياً . . ولكن هناك دائماً معنى لكل فن .

وقد شاهدت فى الاسبوع الماضى عرضاً راقصاً اسبانيولياً . . كان مجموعة قصص يرويها الراقصون والراقصات وترويها معهم الأنغـام . . قصص مفهومة لهـا بداية ونهاية ولهـا حوادثها وأبطالهـا . . وقد يختلف معناها فى ذهن كل متفرج ولكن كل متفرج يخرج منها بمعنى .

وكل رقصات العالم لهـا معنى . الرقص الهندى له معنى والرقص الاسكتلندى له معنى والرقص المنغارى له معنى ورقص الغجر له معنى .. حتى رقص الكلاكيت الذى لا يتجاوز نقرات مرتبة بالقدمين والذى لا أحبه ولا أهضمه يجب أن يكون له معنى يقصده الراقص أو الراقصة .

ما هو المعنى الذى يوحى به الرقص الشرقى . . رقصنا ؟

ما هى القصة التى ترويها الراقصة لجمهورها ؟

لا شىء إطلاقاً . . حتى سمى هذا الرقص « هز البطن » ، لأنه ليس له معنى إلا أن هناك إمرأة تهز بطنها وقد يكون لمجرد هز البطن معنى قد تهز الراقصة بطنها غضباً أو مرحاً . . وقد تهزه لتعبر عن عذاب تقاسيه أو أمل ترجوه . . أو . . أو . . ولكن المصيبة أن الراقصة نفسها لا تقصد أى معنى بهز بطنها . . حتى معنى الإثارة لا تقصده بفنها إنما تقصده بمجرد الكشف عن جسدها . .

ولم يكن الرقص الشرقى دائماً هكذا بلا معنى . . فقد تطور هذا الرقص إلى أن أصبح بهـذه الأوضاع التى نشاهدها الآن فى عصر الحريم عصر العباسيين وسلاطين آل عثمان وكان تطوره تلقائياً أى لم يتعمده فنان إنما أملته الظروف التى كانت تعيش فيها نساء السلاطين . . كن محرومات من الحرية ، ومحرومات من الحب ومحرومات من حق الشكوى فبدأن يعبرن عن حرمانهن خلال الفرصة الوحيدة التى تتاح لهن للمثول بين يدى السلطان . . فرصة الرقص فكانت الغاضبة تعبر عن نفسها برقصها وكانت العاشقة تعبر برقصها عن عشقها والتى تشكو تسمع شكواها فى حركات جسدها وليس معنى ذلك أن السلطان كان يفهم ما يعبرن عنه من معان ولكن الراقصات كن يتعمدن هذا المعنى كل هذا ضاع عنـدما استقر الفن فوق بطـون هؤلاء الراقصات الجاهلات الرخيصات . .

حتى بدلة الرقص لهـا معنى ليست مجرد ثوب يكشف عن الجسد إنما هو تطور لزى المرأة الفرعونية الراقية حتى عصر كليوباترا . . هذا الثوب نفسه كانت ترتديه كليوباترا فهل تعلم ذلك سامية جمـال أو سنية بسكليت ؟

ثم الموسيقى التى تصاحب هذا الرقص هل لها معنى أكثر من الواحدة والنص ولو كان لهـا معنى هل تستطيع الراقصات المبجلات فهمه ؟ لقد وضع عبد الوهاب قطعة موسيقية معبرة أسماها بنت البلـد فيها معانى بنات البلد وفيها دلالهن وفيها قصة يوم من أيامهن . . وقد رقصت بعض الراقصات بمصاحبة هذه القطعة الموسيقية فهل فهمت معناها وهل عبرن برقصهن عن بنت البلد وقصتها ؟ ؟ أبـداً ! ! . .

وبعـــد . .

فقد يذكر القراء أنى سبق أن كتبت – منذ سنوات – حول هذا الموضوع وطالبت بإنشاء مدرسة أو معهـــد للرقص الشرقى وطالبت بإنشاء باليه مصرى وقد لا يعلم أحد أنى منذ شهور قليلة قضيت ساعة أتحدث فيها عن الرقص إلى أحد كبار المسئولين . .

إننى أعتبر الرقص أحد مظاهر الشخصية المصرية كما أنه مظهر من مظاهر الشخصية الوطنية فى كل أمة وفى كل بيت . . فإما أن يكون له معنى وإلا . . حرموه . .

حيـــاتـى

فى أحد الأيام عدت إلى بيتى فى الساعة الثانية صباحاً وما كدت أهم بخلع ملابسى حتى سمعت جرس الباب يرن . . وتوقفت برهة أتساءل من يكون الطارق فى هذه الساعة . . وطافت بذهنى كل الخواطر والاحتمالات وكلها خواطر واحتمالات تقبض الصدر ثم توكلت على الله وذهبت إلى الباب وفتحت الشراعة الزجاجية . . فرأيت خلف الباب شاباً أسمر تنبعث من عينيه الواسعتين أضواء حادة ثائرة ترتعش شفتاه عندما يتكلم كأنه يضبط أعصابه قبل أن يقـــدم على أمر خطير . .

ونظرت إليه متسائلا وأنا أحاول أن أتذكر وجهه

ثم سمعته يقـــول : –

أريد أن أقابلك

قلت ! . .

– إن الوقت متأخر . .

قـــال :

– ولو . . افتح لى ! . .

قلت :

– لا أستطيع . . إنى لم أتعود أن أستقبل إنساناً لا أعرفه ، فى هذه الساعة .

ووضع يده فى جيب بنطلونه وهو يقول

— أريد . . أن . .

وما كدت ألمحه يضع يده فى جيب بنطلونه حتى أغلقت « شراعة الباب » فى وجهه ، وألقيت بنفسى على الأرض بعيداً عن الباب . . وأرهفت أذانى لأتلقى صوت طلقات الرصاص . .

ولم ينطلق الرصاص . .

وبقيت فترة منكفئاً على الأرض ، دون أن أسمع صوت أقدامه وهى تبتعد عن الباب ، ودون أن يطرق الباب أو يدق الجرس مرة أخرى . .

وزحفت على بطنى حتى وصلت إلى الباب وأحكمت إغلاقه ثم قفزت بعيداً إلى حيث آلة التليفون واتصلت بقسم بوليس قصر النيل ، ورويت للضابط النوبتجى الحادثة . .

وبعد دقائق كان الضابط فى بيتى . .

وأعدت عليه ما حدث ، ثم تركنى بعد أن وضع جندياً لحراسة البيت . . وحاولت أن أنام بعد ذلك فلم أستطع فقد كانت ذكريات حوادث الاعتداء على تتوالى فى ذهنى وكانت صور خطابات التهديد التى لا يزال يصلنى بعض منها تقفز أمام عينى . .

وضيعت على نفسى . . نفسى التى أضعها على طرف قلمى وأعرضها لكل هذه الأخطـــار . .

لم أنم حتى الصباح . .

ومكثت فى فراشى أتقلب إلى أن جـــاء الخادم يدعونى لمقابلة ضيف لا يريد ذكر اسمه . . وخرجت إليه من غرفتى وأنا مطمئن إلى ضوء النهار .

وكان نفس الشاب الأسمر . .

نفس العينين الواسعتين . . ونفس الشفتين المرتعشتين . .

وقلت له دون أن أحييه :

— ماذا تريد ؟

قال :

— أنا خطيب الخياطة التى كانت عندكم أمس ، وأريد أن أتأكد فى أى ساعة خرجت من عندكم ! . .

قلت وأنا أكاد أمد يدى إلى عنقه :

— من أجل هذا تزعجنى فى الساعة الثانية صباحاً . .

قـــال :

— إنها مسألة تتوقف عليها حياتى ! . .

وهدأت قليلا وبدأت أشفق عليه وقلت !

— كنت أخشى أن تكون مسألة تتوقف عليها حياتى أنا !

وتركته ليجيبه من فى البيت على سؤاله . .

وعدت إلى حيرتى ! إن كل إنسان أسيء الظن به أندم على إساءة ظنى به . . وكل إنسان أثق به أندم على ثقتى به فأين المفر ؟ !

الحب الأول

التقيت بزوجين إنجليزيين يقضيان شهر العسل فى القاهرة وسألت العروس : لمـــاذا اختارت القاهرة لقضاء شهر العسل ! ؟ . .

أجابت فى صراحة خلتها سذاجة ! . .

– لأنها مسقط رأس حبى الأول . . لقد التقيت فيها بأول رجل أحببته ! .

قلت : هل يعلم زوجك ؟

قالت : نعم . . وقد اتفقنا أن نقضى شهر العسل فى القاهرة ليتعرف بنفسه على الرجل الذى كنت أحبه ! !

قلت : لماذا اعترفت له بحبك الأول . . إن الماضى ميت ، واستحضار أرواح الأموات يزعج الأحيـــاء !

قالت : إن زوجى يعرف كل أموات عائلتى . . ولست أوافقك على أن الماضى ميت أنه حى دائماً . . حى فى نفسى . . إنه قطعة من تكوين شخصيتى ويجب أن يعرف زوجى شخصيتى على حقيقتها ! !

قلت : لقد أحبك دون أن يعرف ماضيك !

قالت : أحبنى وأنا فى الثالثة والعشرين من عمرى ، وهو ليس مغفلا ليعتقد أنى وصلت إلى هذا العمر دون أن يخفق قلبى بالحب ولو مرة واحدة ! . .

قلت : كان يكفى أن تدعيه يستنتج أن فى حياتك رجـــلا سبقه إليك . . ولكن لا تضعى الحقيقة كاملة أمام عينيه . . فإنه قد يكذب استنتاجه . . ولكنه لا يستطيع أن يكذب اعترافك !

قالت : بالعكس .. لو تركته للاستنتاج فسيتوهم أن كل رجل يبتسم لى أو يرفع لى قبعته كان حبيبى . . وستعذبه أوهامه ! . .

قلت : إن صورة حبيبك الأول ستترك فى نفسه عقدة تعـــذبه . . سيتصور دائماً إنك كنت تحبينه أكثر منه سيذكر كلما قبلك إن شفتيك التقتا بشفتى آخر قبل أن تلتقى بشفتيه . . سيذكر كلما ضمك أن جسدك ضمه آخر قبل أن يضمك . .

وباختصار سيشعر دائماً أنه تزوج معطفاً قديماً « سكند هاند » وأنه ليس أول من يتدفأ به .

قالت : لهذا جئت به إلى القاهرة ليلتقى بالرجل الذى كنت أحبه ويتعرف إليه فتنمحى العقد من نفسه ويتأكد عندما نجلس ثلاثتنا سوياً أننى قد أصبحت له وحده وأنى أحبه هو وحده !

قلت : إنى غير مقتنع ! !

قالت : لا تنسى أنه أيضاً اعترف لى بماضيه وعرفت الفتاة التى كان يحبها ! !

قلت : ولو أن المرأة قد تحتمل اعتراف الرجـــل بماضيه ولكن الرجل لا يحتمل اعتراف المرأة بماضيها

قالت : لمـــاذا ؟

قلت لأن الرجل طفل كبير وإنما المرأة إمرأة

إن الرجل له غرور الطفل وأنانيته وسذاجته إنه يحب أن يعتقد فى نفسه أنه يأتى دائماً بما لا يستطيع غيره . . وأنه تزوج المرأة التى لم يمسها مخلوق قبله ولم تجد

قبله رجلا تحبه أما المرأة فهى أكثر واقعية . . إنها أكثر نضجاً من الرجل إنها تفهم حقائق الحياة وتعترف بها وتنزل على حكمها وهى تعرف دائماً أنها ليست أول إمرأة فى حياة زوجها ، وكل ما تحرص عليه أن تكون آخر إمرأة .

قالت :

– لقد كبر الرجال عندنا ولم يعودوا أطفالا . . إنهم يفهمون الحياة ويعترفون بالواقع . . عقبال عندكم ! !

وكان قد انضم إلينا الرجل الذى أحبته قبل أن تتزوج إنه مصرى تزوج أخيراً . وقد جاء ومعه زوجته وجلس الجميع سعداء وقام كل رجل يراقص زوجة الآخر ! . .

وهمست فى أذن الشاب المصرى !

– هل اعترفت لزوجتك بحبك القديم

قال هامساً : أتريد أن تخرب بيتى . . اعمل معروف لا تفتح السيرة ! !

وهذا هو الفرق الكبير بيننا فى مصر وبينهم فى إنجلترا أو فرنسا وألمانيا وأمريكا . . الفرق بين مجتمعنا الحائر . . ومجتمعهم المستقر !

إننا فى مصر لا نسمح للزوجة بأن تعترف لزوجها بماضيها حتى لو كان هذا الماضى لا يضم إلا علاقة بريئة طاهرة لأن التقاليد القديمة البالية تصر على اعتبار أى علاقة بين فتى وفتاة خطيئة كبرى . . ورغم ذلك . . رغم إننا لا نزال ندعى التمسك بهذه التقاليد فإننا نرتكب هذه الخطيئة ، نرتكبها لأن واقع الحياة يحتم علينا ارتكابها ويدفعنا إليه دفعاً . .

ونحن لا نريد أن نفتح أعيننا إلى الفرق بين التقاليد التى ورثناها والواقع الذى نعيش فيه .

كانت التقاليد تعتبر العلاقة بين الفتاة والفتى مهما كانت هذه العلاقة . . خطيئة لأن الفتاة أيامها كانت لا تشترك فى الحياة العامة . . كانت سجينة خلف المشربيات والبراقع . . وكان كل من يحاول الاتصال بها يرتكب جريمة مساعدة سجين على الهرب . . الهرب من التقاليد !

أما اليوم فقد تحررت الفتاة ، خرجت إلى الحياة العامة لتعيش فى مجتمع واحد مع الفتيان . . ولم يعد فى إمكاننا أن نطبق عليها لوائح السجن . . لم يعد فى إمكاننا أن نحرم الفتاة من تقبل إبتسامة من فتى ولا أن نحرمهما من تبادل الأحاديث ولا من الحب إذا جمع بينهما الحب . .

كل ما نستطيعه اليوم هو أن نعترف بالمجتمع الجديد وأن نعترف بأن التقاليد القديمة لم تعد تصلح له ثم نفكر فى تنظيم هذا المجتمع وفى وضع تقاليد جديدة له تخرجه من الحيرة التى يعانيها أفراده .

وأول بند فى التقاليد الجديدة هو انه ليس كل علاقة بين فتى وفتاة تعتبر خطيئة وأن الحب نفسه – الحب العف البرىء – ليس خطيئة . .

والبند الثانى ، أن هذه العلاقات يجب أن يعترف بها الآباء والأمهات ويضعونها تحت إشرافهم لتبقى علاقات بريئة طاهرة ، فإن شعور الجيل الجديد بأن كل علاقة بين الجنسين هى خطيئة .

هذا الشعور هو الذى يدفعهم إلى الاختباء عن الآباء والأمهات والتحايل عليهم ثم يدفعهم إلى الخطيئة نفسها ! !

وإلى أن نضع هذه التقاليد الجديدة . . إلى أن نعترف بالأمر الواقع فى مجتمعنا . . إلى أن يكبر الرجال عندنا ويجدوا فى نفوسهم الجرأة على تفهم حقيقة الحياة . . إلى أن يحدث ذلك . . فإنى أحذر كل زوجة مصرية من أن تعترف لزوجها بحبها الأول . . .

الزوجة العالمية

يبدو أنه أصبح من المحتم على ستات البيوت أن يدرسن السياسة الدولية ، وألا يكتفين من قراءة الصحف بصفحة الوفيات وإعلانات السينما . . فقد دخل ساسة العالم إلى المطبخ ومدوا أصابعهم إلى ميزانية كل بيت ، وقد يبتسم إيزنهاور فينخفض سعر القوطة ، ويكشر تشرشل فيخرج السكر من التسعيرة ، وتمد روسيا لسانها فتلطم أم عبده من سكان حى الحسين خدها وتفقع بالصوت . .

الخبز مثلا . . أصبح مشكلة دولية وأصبح رغيف العيش لا يصل إليك فى مصر إلا بعد أن تميل إنجلترا على أذن أمريكا ثم يميل كل منهما على أذن كندا ، ثم يتبادل الجميع الزغزغات مع روسيا والأرجنتين ، ثم تنعقد هيئة تسمى « هيئة القمح الدولية » ويتبادل أعضاؤها الشتائم والاتهامات لمدة شهر أو شهرين . . وأخيراً يصل الرغيف إليك !

وهيئة القمح الدولية تضم جميع الدول المصدرة للقمح مثل كندا ، والمستورد للقمح مثل مصر . . ما عدا روسيا والأرجنتين وبعض البلدان الأخرى التى تصر على أن تتعامل فى سوق حرة لا تقيدها أهواء الأمم المتحدة . .

ويتفق أعضاء هيئة القمح الدولية على الكميات التى ستستطيع كل دولة تصديرها والكميات التى تحتاج كل دولة لاستيرادها . . ثم يعقدون فيما بينهم اتفاقيات تحدد السعر الأدنى والسعر الأعلى للقمح ، وأمريكا وكندا هما الدولتان اللتان تتحكمان فى هذا السعر لأنهما أكبر الدول المصدرة .

وإنجلترا — مثل مصر — دولة مستوردة للقمح ، وقد لاحظت فى العام الماضى أن إنتاج القمح العالمى قد زاد زيادة كبيرة فطلبت من هيئة القمح الدولية تخفيض السعر طبقاً لقانون العرض والطلب . . ولكن أمريكا رفضت حماية لمصالح مزارعيها ، وأصرت على الرفض ، فرفضت إنجلترا التوقيع على الاتفاقية منذ العام الماضى ، وذهبت تشترى القمح من روسيا بسعر السوق الحرة ، حتى تستطيع ربة البيت الإنجليزية أن تشترى الرغيف بثمن أقل .

وقد زاد انتاج القمح فى أمريكا هذا العام زيادة أخرى حتى انخفض سعره عن سعر السوق الحرة ، وأخذ مزارعوها يهددون بضرورة تنفيذ الاتفاقيات الدولية فى حدود السعر القديم . . ولكن الدول كلها ستتحرر قطعاً من هذه الاتفاقيات ، ولذلك أعلنت أمريكا أنها ستدفع معوناتها الاقتصادية للدول فى شكل زكائب من القمح . . ولو حدث هذا فمعناه أن تحصل الدول على القمح مجاناً ، وتستطيع بذلك أن توزع أرغفة الخبز على شعوبها مجاناً ، ولكنها لن تفعل ذلك قطعاً ، وإنما ستتولى الدولة بيع الخبز للشعوب عن طريق المخابز لتحصل على ثمنه وتضمه إلى ميزانيتها .. وكل ما قد يعود على الشعب هو أن يزداد وزن الرغيف . .

هذه — باختصار — مشكلة الرغيف من الناحية الدولية . . وستعقبها حتما بقية المشاكل ، وقد تتألف هيئة دولية لتوزيع السكر وقد تتكون داخل هيئة الأمم المتحدة لجنة باسم لجنة الخيار الدولية وهيئة الشرابات النايلون العالمية ويصبح من أهم مسئوليات مولوتوف وإيدن ودالاس تحديد سعر البصل والملوخية والجبنة الرومى . . ويصبح على ربة البيت فى مصر أن تتصل بليك سكس لتعرف سعر البطيخ والزبد ومتر الدمور حتى لا يغشها بائع فى الغورية أو بين الصورين .

هذه حقائق لا ريب فيها رغم ما يبدو من أسلوبها الساخر . .

فالعالم يسير بجنون نحو الارتباط بعضه ببعض حتى فى أدق شئون أفراده . . ولن يوجد مكان للمؤمنين بما يسمى العزلة أو الاكتفاء الذاتى أو الوطنية . . إننا نسير نحو ما يسمى العالمية . . أبحث لنفسك منذ اليوم عن زوجة عالمية ! !

هل أنا فيلسوف ؟

هل أصبحت فيلسوفاً ؟

لا أدرى . . فإنى أقرأ الفلسفة ولكنى لا أريد أن أكون فيلسوفاً . . ورغم ذلك فإنى أشعر بأن قدمى ترتفعان عن الأرض وإنى أغوص فى أعماق الفكر إلى أبعد ما تعودت وإنى أنظر إلى موكب الحياة كأنى لا أشترك فيه وأنظر إلى الناس كأنهم أطفال صغار يعبثون فأطل عليهم وبين شفتى ابتسامة ساخرة مشفقة كأنها ابتسامة شيخ وقور خبر الحياة حتى ملها ، وعرك الدنيا إلى أن وجد الغنم فى البعـد عنها . .

حتى ذوقى فى القراءة بدأ يتغير وبدأت أهتم بما كنت اعتبره مضيعة للوقت . . بدأت أقرأ طه حسين على أن مشكلة الساعة هى موضوع الخلافة بعـد موت عثمان بن عفان . . وبدأت أحمد توفيق الحكيم لأنه يعيش مع شهر زاد ويستطيع أن يناقش معها موضوع الجنة والنار ويستطيع أن يرى ملاك الموت فى صورة محصل مصلحة الكهرباء . . وبدأت للمرة العاشرة بعد الألف أحاول أن أقرأ الصفحة الأولى من الكتاب الأول فى سلسلة الروائع المائـة للأستاذ الفيلسوف عبد الرحمن بدوى . . وقد ترحمت على ماضى ومستقبلى عندما استطعت أن أصل إلى الصفحة الثانية . . ولكنى لا أريد . .

لا أريد أن أكون فيلسوفاً . .

أريد أن أكون مع الناس ، وأن أشترك بكل قطرة من دمى وكل عصب من أعصابى فى موكب الحياة . .

أريد أن أعيش فى السعادة والعـذاب ، فى النجاح والفشل ، فى الأمل والخيبة فى الابتسام والدموع . . أريد أن أكون حيث كنت دائماً ، وقدماى ثابتتان على الأرض وقلمى معى . .

إنها معركة . .

معركة بينى وبين قلمى . .

قلم أريده أن يعيش معى فى الواقـع الذى يحيط بكلينا ، وهو يحاول أن يجذبنى معه نحو السماء ، سماء الفلسفة .

امسكوا بى . . قبل أن أطير ! !

النوم والموت

إنى مصاب بالأرق منذ أسبوع . .

إنى أعمل فى مكتبى معظم أيام الاسبوع حتى الساعة الثانية صباحاً ، وأتناول فى اليوم الأول أكثر من عشرين فنجان قهوة وأحرق ثلاث علب سجاير . . ثم أعود إلى بيتى ورأسى أثقل من رأس تمثال رمسيس الثانى ، وطعم القهـوة يملأ فمى وصدرى يضيق بالدخـان وأحاول أن أنام فلا أنام .

وأضيء النور وأقرأ . . وبجانب فراشى دائماً كل أنواع الكتب . . كتب فى السياسة . . وكتب فى الأدب . . وكتب ثمينه وكتب رخيصة وكتب بيضاء وكتب صفراء وأظل أقرأ حتى تضيق عيناى وتعجز عن التقاط السطور فأطفئ النور وأحاول أن أنام فلا أنام . .

وآخذ فى العد من واحد إلى مائة ثم إلى مائتين وإلى خمسمائة . . ولكنى لا أنام ! !

وأتلو فى صدرى بعض آيات القرآن .. ولا أنام وأقوم من فراشى وأدير بعض الأسطوانات ، لأنى أعرف أن الموسيقى تريح الأعصاب ثم أرقد على الأرض بجانب « البيك آب » لعل ملاك النوم يرحمنى . . ولكنه لا يرحم ويتركنى لشيطان اليقظة ! . .

وأنتفض واقفاً وأقوم ببعض الحركات السويدية ثم أطوف بغرف البيت وأحدق فى مجموعة الصور القليلة التى أحبها ثم أدخل غرفة ولدى لأحكم حول كل منهما الغطاء ، وألقى بجسدى بجانب أحدهما وأضمه إلى صدرى كأنى أتوسل إلى الله بحق هذا الصغير أن يرحمنى . .

ولكنى لا أنام ! !

وفى خلال هذه الساعات أتعـذب . . أحس بأعصابى تلتهب كأنى أطفأت فيها كل السجائر التى دخنتها فى يومى وأحس برأسى يضج وكأنه قد ركب فوقه آلة لدك الأساس . . وأحس بجفونى يرخيها التعب ويشدها العـذاب . . وكأنه قد غرزت فيها آلاف من الإبر . . وأحس بروحى تثور على كل شيء ، ، تثور على نفسى وتثور على عملى وتثور على حظى فى الدنيا . .

أريد أن أستريح . . أريد أن أغمض عينى . . أريـد أن أنـام . . أريد أن أموت ! . .

ما هو النوم ؟ . . إنه موت مؤقت !

ورغم ذلك فإننا نريد النوم وكأننا نريد الموت ! . .

وعندما لا ننام نتعـذب بالأرق ، وعندما لا نموت نتعـذب بالحياة ! . .

وكثير من الفلاسفة تصوروا الحياة بلا موت فوجدوها عذاباً لم يجدوا بدلا من الموت إلا الأرق . . الأرق المضنى ! . .

فى قصة « بندورا والهولندى الطائر » حكمت الآلهـة على المجرم الذى قتل زوجته . . بالحياة الخالدة حياة لا تنتهى بالموت . . وفرح المجرم بهذا الحكم وظن أن الآلهة قد كافأته . . ولكن لم تنقض السنون حتى بدأ يتعذب بالحياة . . بدأ يصاب بالأرق الأكبر واستعطف الآلهة أن تعفيه من حكمها . . وحاول أن ينتحر عشرات المرات ولكن الآلهة نفذت حكمها فيه . . وعاش جيلا بعـد جيل ، ولم يكن ينقصه شيء من أسباب الحياة . . لم يكن ينقصه الشباب ولا الجمال ولا المـال . . لم يكن ينقصه إلا الموت . .

وعندما عفت عنه الآلهة . . رحمته بالموت ! !

وفى قصة « فاوست » يثور الرجل العجوز على الله لأنه يضع لكل شىء نهاية ، الإنسان يموت ، والزهور تذبل والشمس تغيب . . والشباب ينتهى إلى الشيخوخة .

ويبرز له الشيطان ويعقد معه صفقة . . أن يهب له شباباً لا يموت ، نظير أن يضع نفسه فى خدمته . . ويقبل الرجل الصفقة . . ثم تسير الحوادث حتى يندم ويشتهى الراحة من شبابه . . يشتهى الموت ! . .

وأنا لا أريد الموت الأخير ولا اشتهيه ولكنى أريد الموت المؤقت . . النوم . . الراحة من اليقظة ! . .

والذين حولى يسألوننى لماذا لا أذهب إلى الطبيب ؟

إنه سيوصينى بالامتناع عن القهوة والسجائر وبتناول أقراص منومة . .

وأنا لا أستطيع أن أستغنى عن القهوة . . إنى أسكبها فوق شبابى الذى حبسته بين جدران مكتبى كما يسكب المـاء الرطب حول القبر ليتعزى الميت من الجفاف الذى يضم جثمانه . .

ولا أستطيع أن أمتنع عن السجائر . . ويخيل إلى أنى إن لم أحرق السجائر فسأحرق نفسى . . لابد من شىء أنفس به عن الحمل الثقيل الذى تحمله أعصابى ، والسجائر هى أخف شىء ! !

أما الأقراص المنومة فهى تنيم كل شىء فى حتى عنادى . . وقـد كنت أتناولهـا فى السجن لأنى لم أكن فى حاجة إلى العناد . . أما خارج السجن فإنى فى حاجة إلى كل عنادى لأتقدم . . ولكنى لا أتقدم . . إنى أجرى . . والعذاب يجرى ورائى عذراً . .

أعذرونى لهذا التشاؤم . . فإنى أكتب بعد ليل طويل أرق !

المحامى والمجرم

هناك مناقشة قديمة حول موقف المحامى من المجرم . .

هل من حق المحامى أن يدافع عن المجرم وهو متأكد من أنه مجرم . . هل من حقه أن ينفى تهمة القتل عن القاتل وهو يعرف أنه قاتل . . هل من حقه أن ينفى تهمة السرقة عن اللص ، وهو يعلم أنه لص ؟ !

الرأى الغالب — رأى السادة المحامين — يقول إن المحاماة هى مهنة الدفاع عن الإنسان . . الإنسان المتهم . . سواء كان بريئاً أو مذنباً . . وقد تكون هناك دوافع إنسانية تبرر الذنب ، أو تخفف من عقوبته ، وهى دوافع أعترف بها القانون فى أكثر من مادة . . وواجب المحامى فى هذه الحالة أن يبرر هذه الدوافع ، حتى يخفف العقوبة عن المتهم إن لم يبرئه . .

وهناك بعض المحامين يرفضون الدفاع فى نوع معين من القضايا . . كقضايا هتك العرض ، أو قضايا المخدرات ولكن هذا الامتناع ليس — فى الغالب — ترفعاً ، أو انعكاساً لمبدأ ، ولكنه نوع من التخصص . . فالمحامى يرفض الدفـاع عن قضايا المخدرات ، لأنه يستطيع أن يستغنى عن أتعابه فيها ، بأتعابه فى قضايا البنوك والشركات . . مثلا .

والمناقشة — كما قلت — قديمة ، ويطول الحديث فيها . .

ولكن الجديد ، هو تحديد العلاقة بين المحامى والمجرم . . تحـديد العلاقة الشخصية بينهما . .

هل يحدد المحامى علاقته بالمجرم على أنه مجرم . . وتقتصر العــلاقة بينهما على موضوع القضية إلى أن تنتهى فينفض يديه منها ، وهو متأفف . . قرفان . . رغم أنه قبض الأتعاب أم يعامله كزبون ؟

يعامله كزبون . . وينافقه . . ويتودد إليه . . ويحاول أن يكسب صداقته . . ثم قد تستمر هذه الصداقــة إلى ما بعــد القضية . . وقد تنتهى إلى نوع من التعاون ، رغم عدم اشتراك المحامى فى الجريمة . . كأن يتولى – أى المحامى – إدارة أملاك المجرم إذا كانت له أملاك . . أو يصبح مستشاره القانونى فى الجرائم التى يرتكبها . . أو . . أو . . ويقضى معــه السهرات ، ويدخل بيته . . و . . ويرفع التكليف ؟ !

إنه سؤال مهم . .

فالمحاماة تنقلب أحياناً ، من مهنة الدفــاع عن الإنسانية إلى مهنة تشجيع الجريمة وتأييدها !

وفى كل الدول يعانى المجتمع من العلاقات التى تقوم بين المحامين والمجرمين . . علاقات التعاون . . وفى كثير من دول العالم – خصوصاً فى أمريكا – تكونت عصابات من المحامين تتعاون مع عصابات من المجرمين . . وظيفتها إرشاد المجرم إلى ثقوب القانون التى يمكن أن تنفذ منه الجريمة . . ثم الدفاع عنه إذا قبض عليه . . ثم الإشراف على مصالحه وعلى عائلته وهو داخل السجن . .

ونحن الآن فى حاجة إلى مناقشة هذا الموضوع . .

وأنا لا أتهم أحداً . .

ولكن . .

الصداقة بين بعض المحامين وبعض كبار تجار المخدرات . . معروفة !

والصداقة بين بعض المحامين وبعض كبار اللصوص . . معروفة !

والعلاقة بين بعض المحامين وبعض المتهربين من الضرائب . . معروفة !

ولعل النقابة – نقابة المحامين – تفتح باب المناقشة وتحاول أن تضع حدوداً واضحة لتقــاليد المحاماة . . من أجــل سمعة المحامين . . ومن أجل كرامة المهنة ! . .

النفقة

سر الأحكام التى تشكو منها المرأة فى قوانين الأحوال الشخصية ، هو :

النفقة . .

إن حق الرجل فى جرجرة الزوجة إلى بيت الطاعة ، هو حق مبنى على التزامه بالإنفاق عليها . . فما دام ملزماً بالإنفاق عليها ، فمن حقه أن يحوزها ، ولو بقوة البوليس !

وحق الرجل فى رد زوجته المطلقة ، خلال ثلاثة شهور من طلاقها هو حق يأخذه مقابل التزامه بالإنفاق عليها خلال هذه الشهور . .

وحق الرجل فى الزواج من أربعة ، هو حق أساسه قدرته على الإنفاق عليهن . .

كل حقوق الرجل المتعلقة بالزواج والطلاق والحضانة والإرشاد و . . . و . . . كلها قائمة على أساس أن الرجل مكلف بالإنفاق على المرأة . .

إنها مسألة اقتصادية محضة . .

وقد صدر فى العراق قانون يساوى بين نصيبى الرجل والمرأة فى الميراث . . للرجل مثل حظ الأنثى ، لا مثل حظ الأنثيين ، كما تنص الشريعة .

واعترض رجال الدين . .

واعترض رجال القانون أيضاً . .

وكان اعتراضهم قائماً على أساس أن نفس القانون يلزم الزوج بنفقة زوجته . . ولا يلزم الزوجة بالإنفاق على الزوج . . ومعنى هذا أنها تأخذ نصيبها من الميراث ، وتأخذ أيضاً نفقة الرجل عليها . . ولا يبقى بعد ذلك شىء . .

فإذا كان الميراث مائتى جنيه . . وأخذت المرأة مائة ، والرجل مائة . . فإن الرجل سيضطر بعد ذلك – ويحكم القانون إلى الإنفاق على المرأة خمسين جنيهاً من نصيبه . . على الأقل . . ومعنى ذلك أن المرأة ستحصل على ١٥٠ جنيهاً ، والرجل ٥٠ جنيهاً فقط . . وكأننا قلبنا نص الشرع . . فبعد أن كان للرجل مثل حظ الأنثيين ، أصبح للأنثى مثل حظ الرجلين . .

ورأيى . .

رأيى أن تتنازل المرأة عن حق إنفاق الرجل عليها ، ما دامت مصرة على أن تتساوى مع الرجل أمام قانون الأحوال الشخصية . . وما دامت المرأة تؤمن بحقها فى المساواة ، فليس من كرامتها أن تطالب الرجل بالإنفاق عليها . . ليس من كرامتها أن تدعى أن إنفاق الرجل عليها هو نظير متعة بها . . إنها ليست متاعاً . . إنها إنسانة كاملة ذات شخصية مستقلة . . ومتعة الرجل بها . . تتساوى مع متعتها به . .

هل ترضى المرأة أن تتنازل عن حقها فى النفقة ؟

إنها مسألة اقتصادية بحتة !

ويوم يصبح للمرأة استقلالها الاقتصادى . . يوم تعمل وتكسب وتعول نفسها . . لن تحتاج إلى نفقة الرجل . . ولن يجادلها أحد فى مطالبتها بتعديل قوانين الأحوال الشخصية . .

حتى عواطفك يملكها الشعب

كنت أتحدث مع زملائى عن الاشتراكية . . وقلت لهم إن التفسير اللفظى لكلمة « اشتراكية » هو : الاشتراك فى الحياة . . وكل مجتمع هو عبارة عن مجموعة من الناس يشتركون فى حياة واحدة . . أى أن كل مجتمع هو بطبيعته مجتمع اشتراكى ! !

وعلى قدر ما يحقق المجتمع من النظم الاشتراكية ، يقترب من طبيعته . .

والاشتراكية لا تتحقق إلا بتحقيق العدل والمساواة . . والعدل والمساواة لا يتحققان إلا إذا كان التفكير الذى يسيطر على المجتمع ، هو تفكير يشمل المجموع . . كل شىء لمصلحة المجموع . . وكل شىء يحسب فيه حساب المجموع . . والفرد هو واحد من المجموع . ليس من حقه أن ينفصل عنه . . ليس من حقه أن ينفصل عنه حتى بعواطفه . . فعواطف الفرد ليست ملكاً خاصاً له ، إنما هى ملك للمجموع . . للشعب !

وصاح أحد الزملاء :

– حتى العواطف ! !

قلت :

– حتى العواطف . . الحب . . الكراهية . . والثورة . . والغيرة . . و . . و . . و . . و . . كل هذا لا تستطيع أن تتصرف فيه وحدك إلا فى الحدود ، وفى داخل النظم ، التى أتفق عليها المجموع . .

قال الزميل فى ذهول :

– كيف ؟

قلت :

– إنك لست حراً فى أن تحب إمرأة متزوجة،مثلا . . وإذا أحببتها فليس من حقك أن تمارس حبك . . وإذا حاولت أن تمارسه فستضطر إلى الاختباء . . إلى الهرب من المجتمع لأن المجتمع لا يقر هذا الحب . . ولا يسمح لعواطفك أن تتجه هذا الاتجاه . . ثم إنك لو أحببت فتاة ، فالمجتمع أيضاً يتدخل فى حبك ويحدد لك الطريق الذى يجب أن تسير فيه عواطفك ويفرض عليك الزواج . . فإذ لم تتزوج ، وقف المجتمع يعارض عاطفتك ويحرمك من حقك فيها . . وأنت لست حراً فى أن تتجه بعواطفك نحو أعداء وطنك اتجاهاً يخالف اتجاه الشعب حتى لو كنت مقتنعاً بحب أعداء الوطن والتعاون معهم . .

فليس من حقك كفرد أن تتجه بعواطفك الوطنية اتجاهاً فردياً . . وإلا أصبحت خائناً ، وحكم عليك المجتمع بالإعدام . . كذلك لو أعلن الشعب الحرب ، فليس من حقك أن تنادى بالسلام ، حتى لو كانت كل عواطفك مع السلام . . وإلا اعتبرك الشعب هارباً من تأدية واجبك الوطنى . . و . . و . . .

فالمجتمع يتدخل فى عواطف الأفراد ويحددها وينظمها تماماً كما يتدخل المجتمع الاشتراكى فى نشاط أصحاب رؤوس الأموال ، ويتجه بهذا النشاط اتجاهاً يحقق الصالح العام .

نصف الـــزواج

ليس هناك نصف زواج أو ربع زواج . . هناك زواج أو لا زواج . . وحكمة الزواج الأولى هى : الإشهار . . إشهار علاقة رجل بامرأة . . أى مواجهة المجتمع بالعلاقة بين الإثنين . .

ويتساوى فى هذا الزواج الشرعى والزواج العرفى . . فالزواج الشرعى الذى لا يتوفر فيه عنصر الإشهار . . أى الذى يتم فى السر . . ويبقى سراً . . لا يعتبر زواجاً حتى ولو اعترفت به الدولة . .

والزواج العرفى الذى يعلن للناس ، يعتبر زواجــاً كاملا . . حتى لو لم تعترف به الدولة . .

المهم هو الإشهار . . هو العلانية . . هو أن يعرف المجتمع أن هذه المرأة قد أصبحت لهذا الرجـــل ، حتى يحدد ـ أى المجتمع ـ نظرته لهما ، وتصرفاته حيالهما ، ويرتب لهما الحقوق الاجتماعية ويعترف بأولادهما . .

فالزواج أساساً ، هو تنظيم اجتماعى لعلاقة الرجل والمرأة . .

بل إن بعض المجتمعات اضطرت تحت ظروف خاصة ، أن تعترف بعلاقة الرجـــل بالمرأة ، بلا زواج ، ما دامت هـــذه العلاقة قد أقيمت فى العلن ، وتوفر فيها عنصر الإشهار .

وقد قال لى صديق عاد أخيراً من الأرجنتين ، إن الناس هناك متدينون أشد التدين . . والدين يحرم الطلاق تحريماً مطلقاً . . ويحدث أحياناً أن يستحيل على الزوجين الاستمرار فى حياتهما الزوجية . . فينفصلان . . ينفصلان بلا طلاق . .

ثم يبقى كل منهما فى حاجة إلى نصف آخر .

وكل منهما لا يستطيع أن يتزوج مرة أخرى . . وتكون النتيجة أن تتخذ الزوجة المنفصلة عشيقاً . . ويتخذ الرجل المنفصل عشيقة . . ومع الزمن تعـــددت هذه الحالات حتى شملت عدداً كبيراً من الناس . . وأصبحت تتم فى العلن . . فى مواجهة الناس . . أصبحت المرأة المتزوجة المنفصلة تعيش مع عشيقها حياة كاملة . . وأصبح الزوج المنفصل يعيش مع عشيقته حياة كاملة . . وتطورت التقاليد ـ تحت إلحاح الحاجة ـ فبدأ المجتمع يعترف بهذه الأوضاع . . وأصبح يعامل الرجل وعشيقته ، أو المرأة وعشيقها كأنهما زوجـــان . . بل أعتبرهما زوجين . . أصبح المجتمع يدعوهما إلى الحفلات الرسمية والخاصة . . ويعترف بأولادهما كأولاد شرعيين . . و . . . و . . إلى آخر الحقوق التى يمنحها المجتمع لكل زوجين . .

فحتى هذه العلاقة التى لا تقوم على أساس من الدين أو الشرع قد أقرها المجتمع ، لأنها نتيجة حاجة اجتماعية ، ولأنها تقوم على أســـاس الإشهار . . العلانية !

ومجتمعنا لا يمكن أن تقوم فيه مثل هذه العلاقة لأن ديننا يبيح الطلاق . .

ولكن . .

مجتمعنا أصيب فى السنوات الأخيرة بوباء الزواج فى السر سواء كان زواجاً شرعياً أو عرفياً . . والأسباب التى تدفع الزوجين إلى الاحتفاظ بزواجهما سراً . . كثيرة . . قد يكون الزوج متزوجاً من أخرى ، ويخاف منها . . أو قد تكون

الزوجـة لها معاش حكومى ، تركه لهـا زوج آخر ، ولا تريد أن تحرم منه . . أو . . أو . .

ومثل هذا الزواج ، لا يعتبر زواجاً . . لا أمام الله ، ولا أمام الناس . .

الزواج ، هو الإشهار . .

وكل علاقة لا يتوفر فيها الإشهار . . أو العلانية . . لا تعتبر زواجاً . . ولا يترتب عليها حقوق اجتماعية . . حتى لو ترتبت عليها كل الحقوق المدنية . .

بعد ١٠٠٠ سنة

مجتمع الآلة

ما هو أثر المخترعات العلمية الحديثة ؟

ما هو أثر الصاروخ الذى ينقلك من القاهرة إلى الاسكندرية فى نصف دقيقة . . والآلة التى تضغط على مفتاحها فتقدم لك فرخـة مشوية ، وتعزف لك قطعة موسيقية لتساعدك على الهضم . . والتلفزيون . . والوصول إلى القمر . . و . . و . . إن كل هذه المخترعات تبحث عن الهدف ، هدف الإنسان وتقضى على المتعة . . متعة السير فى الطريق الى الهدف إن الصاروخ ينقلك إلى الاسكندرية فى نصف دقيقة فيحقق لك الهدف الذى تريده . . ولكنه يحرمك من متعـة الطريق . . من متعة قيادة سيارتك فى الطريق الصحراوى . . أو التأمل من نافذة القطار فى جمال الطبيعة . .

والتلفزيون ينقل السينما إلى بيتك . . ولكنه يحرمك من متعة الذهاب إلى دار السينما . . متعة التأنق فى ثيابك قبل أن تخرج . . ومتعة التسكع على باب السينما قبل عرض الفيلم . . ثم متعـة إحساسك بأنك بين الناس داخل السينما . .

وقد يظهر قريباً اختراع لتقصير مدة الحمل . .

تتناول المرأة بعض الحبوب فتحمل وتلد فى ثلاث دقائق . . ويتحقق الهدف . . يصبح لهـا ابن . . ولكنها تفقد متعة تعلقها برجلهـا ، ومتعة انتظار وليدها ، هذا الانتظار الذى يولد فيها أحاسيس الأم ، وشخصية الأم . .

وهذه المخترعات ستعيد الإنسان إلى عهـــد الكهف . . ولكنه لن يكون كهفاً في الصخر . . بل سيكون كهفاً من الألمونيوم ، مزوداً بتلفزيون ، وفريجيدير ، ومطبخ كيميائي يعمل أوتوماتيكياً ، فتضغط على زر فيه فتخرج لك صينية بطاطس في « حباية » . . قرص صغير كقرص الاسبرين . . ولن تكون في حاجة إلى أسنانك . . وبمرور الأجيال سيولد الإنسان بلا أسنان لعدم حاجته إليها . .

ولن يحتـــاج الإنسان إلى الخروج من كهفه . . فكل ما يريده سيجده داخل الكهف . . بل لن يضطر إلى الخروج ليعمل فالعمل كله ستقوم به الآلة . . آلة تنتج . . وآلة تدير الآلة وتنتهي سلسلة الآلات إلى زر يضغطه صاحب المصنع وهو جالس في حجرة نومه ، وأمامه لوحة الكترونية تبين له انتظام سير جميع الآلات . .

وبهذا لن يحتاج الإنسان إلى المجتمع . . لن يحتاج إلى الاتصال بغيره من الناس . . فإن المجتمعات تقوم على احتياجات الأفراد بعضهم لبعض . . كل فرد يتمم عمل الآخر . وعمل الجميع يكون سعادة المجتمع . . ولكن . . في عالم الغد سترتبط حاجة الإنسان بالآلة . . ويصبح المجتمع مجتمع آلات . . فالآلات محتاجة بعضها إلى بعض . . كل آلة تتمم عمل الآلة الأخرى . . . ولن تقام حفلات اجتماعية ، لأن الحفلات دوافعها حاجة الإنسان إلى التسلية . . وسيجد الأنسان في بيته كل أدوات التسلية دون حاجة إلى الاستعانة بغيره من الناس . . ستصبح الحفلات الوحيدة هي الحفلات التي تقيمها الآلات داخل المصانع ! ! . .

معنى هذا . . أن العالم يندفـــع نحو المادية والآلية . .

وما مصير الفنون ؟ . .

ستزدهر الفنون . . سيصبح الفن هو العمل الوحيد الذي يقوم به الإنسان . . فإن الإنسان في المجتمع الآلي سيتسع أمامه فراغ كبير . . الفراغ الذي كان يشغله

بالسفر إلى الاسكندرية في سيارة أو في قطار . . وبالعمل في دواوين الحكومة . . والمصانع . . و . . و . . . مما ستقوم به الآلات . . ولن يجد الإنسان ما يشغل به الفراغ إلا الفن . . الموسيقى ، والأدب ، والرسم . . فإن الفن هو العنصر الوحيد الذي لا تستطيع الآلة مهما تقدمت أن تغتصبه من الإنسان . .

ولكن الفنون ستتطور . . سيصبح لها لون آخر ، فالفنون عادة هي تعبير عن القوة المسيطرة على المجتمع . . وبمعنى آخر . . القوى المسيطرة على المجتمع تؤثر على تشكيل الفنون فعندما كانت الطبقة الأرستقراطية هي المسيطرة على المجتمع كانت الفنون تعبر عن هـــذه الطبقة . . كانت الموسيقى هي موسيقى الأوبرات التي يتكلف إخراجهـــا آلاف الجنيهـــات وكان الرقصة الســـائدة هي رقصة « المنياتير » . . رقصة ناعمة كسولة . . وكان الأدب كله أدباً رومانسياً . . ثم عندما سيطرت الطبقة الشعبية ، سيطرت الفنون الشعبية . . موسيقى « الجاز » . . ورقصات الرومبا والتشاتشا . . والأدب الواقعي . . وعندما تسيطر قوى الحرب ، تدور الفنون حول الحرب . . وهكذا . .

ومجتمع الغد ، هو مجتمع الآلة . .

ستكون الآلة هي المسيطرة . . ستكون أقوى من الإنسان وسيكون للإنسان أخلاق الآلة ، وطبائع الآلة . . تماماً كما سيطرت طبقة العبيد في روما ، ففرضت تقاليدها وأخلاقها ، وأصبح المجتمـــع كله له تقاليد العبيد ، وأخلاق العبيد . .

وبذلك سيتطور الفن ، ويصبح له لون الآلة ، وذوق الآلة ، وموضوع الآلة . .

* * *

فكرت في هذا كله ، وأنا أتخيل قصة يمكن أن تدور وقائعها بعـــد ألف سنة . .

وتصورت أن المخترعات الحديثة يمكن أن تحيي الموتى .. وتجسدهم في أجساد جديدة ..

وليس هذا مجرد خيال ..

إنه استنتاج ..

فقد استطعنا أن نجمع الصوت من الفضاء ونجسده في آلة الراديو ..

واستطعنا أن نجمع الصورة من الهواء .. ونجسدها في آلة التلفزيون .. بل إن التلفزيون استطاع أن يجسد الصورة بألوانها .. ويجسدها مجسمة .. وأرواح الموتى هائمة في الهواء .. لأن الروح لا تفنى .. لا شيء يفنى .. ومن المعقول أن تخترع آلات تجسد هذه الأرواح .. في أجساد جديدة ..

وتصورت عودة بعض الموتى ، ومفاجآتهم بالمجتمع الجديد .. ولكني وجدت أن الفكرة قديمة سبق أن طرقت في قصة « أهل الكهف » .. و « حديث عيسى ابن هشام » !

* * *

والله ..

ما مصير الإيمان بالله .. إزاء كل هذه اخترعات ؟ !

البعض يقول إن تقدم العلم سيزيد من اعتداد الإنسان بنفسه إلى حد أن يكفر بالله ..

بالعكس ..

إن إيمان الإنسان بنفسه .. سيزيد من إيمانه بالله الذي خلق هذه النفس .. وكلما كشفت النفس عن سر من أسرار الله .. بهرت .. وازدادت إيماناً به ..

وأقوى ما تتمثل فيه قدرة الله .. الإنسان ..

الفنان والناقد

للأديب الراحل كامل الشناوي رأي عن العلاقة بين « الفنان » و « الناقد » فهو يرى أن هناك عداء طبيعياً بين الناقد ، وبين المفكر والفنان .. فالمفكرون والفنانون يرون أنهم لو لم يكونوا لما كان للنقاد وجود .. فهم لا يخلقون الأثر الفني وحده ، ولكن يخلقون الناقد أيضاً ! وإلا كيف يوجد الناقد إذا لم يجد ما ينقده ؟ ولهذا يؤلمهم أن يتعالى النقاد عليهم .. لأنهم خالقون ، والنقاد مخلوقون ..

وهذه وجهة نظر ..

وأنا – ككاتب تعرض كثيراً للنقد – لي وجهة نظر أخرى .. فأنا لا أؤمن بأن هناك عداء طبيعياً بين الفنان والناقد .. وإذا وجد هذا العداء فهو لا يكون عداء طبيعياً .. إنما هو عداء نتيجة خطأ من الناقد أو من الفنان ..

وأنا أعتقد أن النقد – كما يجب أن يكون – هو مساهمة في العمل الفني ..

الناقد ليس عدواً للفنان ، ولا منفصلا عنه .. ولكنه صديق للفنان ، ومتمم له ، وعمله هو جزء من العمل الفني .. وقد عرف طائر « أبو قردان » بلقب صديق الفلاح ، ورغم أن أبو قردان لا يشترك في زراعة الأرض .. ولكن الفلاح يزرع وأبو قردان يلتقط من الأرض الديدان التي تضر بالزراعة ..

وكل ناقد يستطيع أن يسمى صديقاً للفنان .. كل ناقد يستطيع أن يكون أبا قردان !

وإذا كان قد قيل عن النقد أنه مرآة للفن ، فإن المرآة هى جزء متمم لمحاولة خلق الجمال . . إنها تساهم فى عملية الخلق نفسها والمرأة لا يمكن أن تكون جميلة ، ولا يمكن أن تتقدم فى فن الجمال ، بغير مرآة . . والمهم أن تكون المرآة صافية ، صادقة . . ليست صدئة وليست كاذبة . . ليست كمرايا لونابرك التى تشوه الجمال . .

والناقد فنان . . أو يجب أن يكون فناناً . . فإن النقد يعتمد على الذوق . . والذوق حاسة فنية . إذا صقلت بالثقافة والدراسة ، والتجربة ، أصبح صاحبها فناناً . . . وبذلك يكون الناقد فى نقده خالقاً وليس مخلوقاً . . تماماً كالفنان . .

ولكن . .

المشكلة ليست هى مشكلة العلاقة بين الفنان والناقد . . ولكن المشكلة هى فى النقاد أنفسهم . . فالنقاد عندنا لم يستطيعوا بعد أن يرتفعوا إلى مستوى النقد الخلاق . . ولم يستطيعوا أن يتفرغوا للنقد ، ويبذلوا فيه من الجهد والدراسة والملاحقة ، بحيث يساهموا مساهمة فعالة فى العمل الفنى . . ومعظم النقاد عندنا اليوم هم كتاب حاولوا أن يكونوا فنانين ، فلما فشلوا أصبحوا نقاداً . . وأصبح النقد بالنسبة لهم هو مجرد تنفيس عن شهوة الكتابة . . كما أن كثيراً من النقاد ينقدون العمل الفنى ، لا لأنهم نقاد ، لهم مؤهلات النقد ، إنما لأنهم مجرد كتاب فى الصحف . . والصحف عادة ترحب بالهجوم ، أكثر مما ترحب بالتأييد . . كما أن كثيراً من النقاد يحكمون فى آرائهم بشعورهم الشخصى أو علاقاتهم الشخصية بالفنان ، أكثر مما يحكمون مقاييس الفن نفسه . .

هذه هى المشكلة . .

وكثيرون من الأدباء يترحمون على أيام نهضة المعارك الأدبية التى قامت على النقد . . أيام طه حسين ، والعقاد ، والمازنى ، وشوقى ، وحافظ إبراهيم . . و . . و . . والواقع إن الذين كانوا يسيطرون على هذه المعارك ليسوا هم النقاد

لم يكن هناك تخصص فى الإنتاج الفنى ، وفى النقد . . كان طه حسين يخلق عملا فنياً ، وفى الوقت نفسه ينقد أعمال غيره . . وكذلك المازنى . . والعقاد . . ويحيى حقى . . وكلهم . . ولو كانت هذه المعارك قد قامت بكل ما كان فيها من عنف ، وقسوة ، وظلم ، على أكتاف النقاد وحدهم لانتهت قطعاً بقتل الحركة الأدبية الحديثة وهى فى مهدها . . ولكن النهضة الأدبية اجتازت هذه المعركة بسلام ، لأن الذين أثاروها كانوا فنانين ، وكانوا يحاولون بناء أنفسهم ، بقدر ما يحاولون هدم غيرهم . . .

والدليل على ذلك أن نهضة المسرح تعرضت لإرهاب مجموعة من النقاد ، ليسوا فنانين . . أى ليسوا ممثلين . . فكانت النتيجة أن ضاعت نهضة المسرح . . وكذلك نهضة السينما . . ولولا الجهود التى تبذل هذه الأيام لاستعادة نهضة المسرح والسينما ، لاستطاع النقاد أن يقضوا عليها إلى الأبد . . بجهلهم ولعدم اعتزازهم بدورهم فى تشييد البناء . .

وليس معنى هذا أن الناقد يجب أن يكون ذا إنتاج فنى . . بالعكس . . الناقد كلما تفرغ للنقد استطاع أن يرتفع بمستواه . . ولكن ما أريد أن أقوله . أنه لم يكن عندنا أبداً — وإلى اليوم — حركة نقدية بمعنى المساهمة فى العمل الفنى . . والذين يتعرضون للنقد هذه الأيام ليست لديهم نية المساهمة فى العمل الفنى إما لأنهم يريدون . . وإما لأنهم لا يستطيعون !

في شبه جزيرة سيناء
الطريق إلى الله .. صعب !

إنى ذاهب إلى دير سانت كاترين ، وفى قلبى رهبة ، وفى عقلى خشوع . .

إنى أحاول أن أجرد قلبى وعقلى . .

أحاول أن أخلص إلى الله . .

لابد أن الله سيكون هناك ، قريباً منى . . فهناك التقى موسى بالله ، وتلقى منه وصاياه العشر . .

ولن ألتقى بالله كما التقى به موسى ، ولكنى سأكون قريباً منه . . وأنا أعرف أن الله فى كل مكان . . أنه فى مكتبى بروز اليوسف ، كما هو فى مكة ، وكما هو فى باريس . . إننا لا نسافر إلى الله ولكنى كنت أعيش فى وهم . . وهم تثيره صورة دير ملقى فى الصحراء بعيداً عن الحياة . . ورهبان تبتلوا فى حب الله . . وجرس كنيسة يدق ، ومئذنة جامع تنبثق من بين صخور الجبل . . وكان هذا الوهم يساعدنى على التجرد . . كنت فى حاجة إلى هذا الوهم حتى ارتفع بقلبى وعقلى إلى الله . . إلى الهـدوء . . إلى سكينة النفس . . إلى الحب الأكبر . .

وانطلقت بى السيارة تحملنى إلى وهمى . .

أننا نسير فى الصحراء . .

لا طريق . . أن كل ما يرشدنا هو آثار عجلات السيارات التى سبقتنا . . والسيارات التى سبقتنا لم يكن لهـا فضل فى اكتشاف طريقها ، إنما سارت

بمحاذاة مجرى السيول ، الذى يشق بطن الوادى . . أرشدها الله . . ولا شىء حولنا إلا عظمة الله . . الجبال الملونة الجرداء تطل علينا وتنظر إلينا فى قسوة كأنها تذكر كلا منا بخطيئته . . والرمال الغامضة تفرش طريقنا . . وصخور وحشائش . . وصمت . . صمت رهيب . . وأحاول وسط هـذه العظمة أن أتوجه بقلبى إلى الله . . ولكن السيارة ترتفع وتنخفض كأن يداً قاسية تحاول أن تحطمها . . مطب . . ويسقط قلبى فى قدمى . . وأعجز عن التوجه إلى الله . .

إننى وأنا فى طريقى إلى الله لا أستطيع أن أنظر إلى السماء ، وإنما أنظر إلى الأرض لأترقب المطبات ، وقطع الصخور التى قـد تصطدم بها السيارة . . والأسطى أنور يعرف الطـريق . . يعرف كل مطب فيه ، وكل صخرة . . وأحياناً يترك طريق السيارات ، ويرتفع إلى طريق آخر ، تجنباً لكثيب من الرمل قد تغرز فيه السيارة . . ورغم ذلك فقد غرزنا . .

ونزلنا من السيارة نزيح الرمال بأيدينا من تحت العجلات ، ونقطع الحشائش ، ونفرشها فوق الطريق حتى تخفف من نعومة الرمل . . و . . اللى يحب النبى يزق . . وكلنا يحب النبى . . وعدنا نسير فى بطن الوادى . . وادى « فاران » ولكنه معروف باسم وادى « فيران » والجبال تلف وتدور حولنا ، وتقسم الوادى الكبير إلى عدة وديان صغيرة . . وادى رمانة . . وادى الشيخ . . و . . و . . والأسطى أنور لا يكف عن الحديث عن أبونا نيكوفورس . .

إنى منذ عبرت القنال ، وأنا أسمع اسم أبونا نيكوفورس . . فى نقطة الحدود حدثونى عن أبونا نيكوفورس . . وفى أبى زنيمة حديث عن نيكوفورس . . وفى أبو رديس . . و . . و . . أن أحداً لا يحدثنى عن الله ، كلهم يتحـدثون عن أبونا نيكوفورس . .

وتمر بنا سيارة من بعيـد . . شىء صغير يتحرك وسط هذا الصمت . .

— مين دول يا أسطى أنور ؟

— دول بتوع الجراد يا أستاذ !

وبتوع الجراد هم رجال مقاومة الجراد ، يطوفون بالوادى ليقتلوا الجراد قبل أن يصل إلى وادينا . . وادى النيل . . وسيارة جيب تقطع الطريق فى سرعة مجنونة . . والسرعة المجنونة فى الصحراء لا تزيد عن ستين كيلو متراً . .

— مين دول يا أسطى أنور ؟

— دول خبراء الفحم يا أستاذ . .

وخبراء مناجم الفحم روسيون . . وهم ليسوا فى طريقهم إلى المناجم ، إنهم مثلى فى طريقهم إلى الدير . . وربما كانوا مثلى يبحثون عن الله . . حتى الشيوعيون فى حاجة إلى الله !

ويعود الأسطى أنور ليتحدث عن أبونا نيكوفورس !

وتقف السيارة ربثما تهدأ ، وتخف سخونتها . . والوادى حولنا مغطى بقطع الصخور الملونة . . كل الألوان . . الأصفر والأخضر والبنفسجى والأحمر . . كأن الأرض « باليته » رسام اختلطت فيها كل الألوان . . وأنزل من السيارة . وأهم برفـــع حجر من هذه الأحجار . . أمد يدى لألمسه كأنى أحاول أن ألمس عظمة الله . . وإذا بالأسطى أنور يصرخ بملء فمه :

— لا تقلب الحجر . .

— ليه ؟

— قد يكون تحته عقرب . . أو تعبان . . أو طريشة !

و « الطريشة » نوع من الحيات . . قصيرة . . تقفز فى وجهك . . وتلدغ . . كأنها تقبلك . . وقبلتها هى قبلة الموت . . ولا علاج ولا رحمة من قبلة الطريشة ! !

وخيل إلى فى لحظة إنى لو صادفت عقرباً أو طريشة ، فسأربت على ظهرها . . وأدللها . . أليست هذه أيضاً من مخلوقات الله ؟ ! وأنا أحب الله وأحب مخلوقاته . . هذا الحب الكبير . .

ولكن يظهر إنى أضعف من هذا الحب الكبير . .

فقد سحبت يدى من فوق الحجر بمجرد أن سمعت صوت الأسطى أنور . . وأخذت أنظر تحت قدمى خوفاً من أن تكون هناك عقرب أو طريشة تزحف نحوى . . ثم عدت إلى السيارة لأكون أكثر أمناً ! !

وبردت السيارة . .

وعادت تلهث صاعدة فى الوادى الكبير ، نحو الجبل . . ولا أحد نلقاه فى طريقنا . . لا شىء من الحياة سوى هذه الحشائش التى تنبت بين الصخور . . والحشائش تغزو كلما تقدمنا فى جوف الصحراء . . إنى كلما رأيت حشائش اقتنعت أن تحتها ماء . . ماء قريب من سطح الأرض . . وإذا كان الماء قريباً ، فلماذا تبدو الحياة بعيدة . . هنا فى شبه جزيرة سيناء . . ربما لأننا أكسل من أن نبحث عنها . . عن الحياة ! !

والحشائش تغزو أكثر . . وبدأنا نلتقى بأفراد من البدو . . أو « البدوان » كما يسمونهم . . وكل منهم يبدو كقطعة من الطبيعة . . كهذا الحجر . . كهذا الكثيب من الرمال . . كهـــذا الجبل إن كل من تحمله من مظاهر الحياة هو أنه يتحرك . .

وبدوى يركب جملا ، ويتمنطق بمجموعة من الأحزمة الجلدية يلفها حول وسطه وحول كتفيه . . وينزل من فوق الجمل بسرعة ، ويلوح بيـــده إلينا ، وهو يصيح :

— سجاير . . سجاير ! !

والأسطى أنور لا يريد أن يقف لنعطى للرجـــل سجاير !

ثم نصل إلى أول واحـة . .

اسمها . الحصوة . .

مجموعة من البيوت الصغيرة مبنية من الصخور . . نفس الصخور الملقاة فى طريقنا . . وأبوابهـا مدهونة باللون الأحمر الفـاقع . . وبئر خـارج الواحة . . وبضعة نساء فى ثيابهن البدوية يدلين فى البئر العميقة ، شادوفاً يرفعن به المـاء . . والنخيل يظلل البيوت . . وأشجار الزيتون . . ورجل يخرج إلينا ، ويصافحنا . . و . . اتفضل شاى . . شكراً يا شيخ العرب . . ونساء ينظرن إلينا من وراء الباب ، ولا تكاد تلتقى عيوننا بهن حتى يختفين . . وأطفال يتجمعون حولنا . . وتحس أنك عدت إلى الحياة . . الحياة أيام سيدنا موسى . .

وأنحنى على طفل . .

ـ اسمك أيه يا شاطر ؟ !

ـ موسى . .

ويخيل إلى أن تسعة أعشار أهل سيناء يحملون اسم موسى . . والبنات يحملن اسم : موسية . .

وشيخ العرب بجانبنا ولا نكاد نبتعـد عنه ، حتى يرسل إلينا ابنه موسى ، ليطلب منا سيجارة . .

ونعطيه علبة سجاير . .

ويتعجلنا الأسطى أنور . . إننا لن نستريح هنا . . يجب أن نصل إلى حديقة الدير . .

ونصل إلى حديقة الدير ، على أطراف واحة فيران . . وليس معنى ذلك أننا أصبحنا قريبين من الدير نفسه . . لا يزال بيننا وبين الدير ساعتان ! !

ويفتح أمامنا باب خشبي صغير . .

وندخل فى حديقة مزروعة بالعنب . . والعناقيد المليئة تطل فوق رؤوسنا وتكاد تلامسنا . . وأشجار التفاح ، والبرقـوق والزيتون ، تملأ الهواء بعبير حلو . . ويخيل إلى أنى أخطو إلى الجنة . . والجنة ليست فى العنب والتفاح والبرقوق ، ولكن فى هذا الهدوء الذى يستقبلنا ، ويزحف على أعصابنا ويخدرها . . ويخرج إلينا قسيس جليل . .

سمين . . وجهه هادىء . . وبين شفتيه ابتسامة هادئة . . وفى عينيه ذكاء . . ذكاء طيب . . ولكنك تحس أنه يستعمل هذا الذكاء كسلاح . . سلاح ماض . . سلاح قوى !

ويقودنا القسيس إلى خميلته وسط الحديقة . . فى وسطها مائدة وحولها مقاعد . . ويجلس القسيس فى بطء وكسل ، كأنه ليس فى حاجة إلى أن يقوم مرة ثانية ونجلس حوله ، والتفت . . فتصدمنى الدهشة . . إن فى أحد أعمدة تكعيبة العنب دفتر تليفون معلق . . دفتر تليفون ! !

هل عندك تليفون يا أبونا ! !

ويضحك أبونا بركليس . . لا ، ليس عندى تليفون . . إنى أحتفظ بهذا الدفتر لمجرد قراءة الأسماء بين وقت وآخر . . وقراءة الأسماء تعيد إلى ذكر الحياة . .

ويقدم لنا أبونا أقداح الشاى . . ويحدثنا . . وعندما نهم بالتقاط صورة له ، يختار بنفسه المكان الذى يقف فيه . . ويسرع ويأتى بقبعته الدينية ويضعها فوق رأسه . . وتطول جلستنا معه ، وكلما طالت اقتربنا من الحياة أكثر من اقترابنا من الله . . إنه يعيش وحده . . ليس معه أحد إلا خـادم من البدو . . ليس معه ولا حتى قسيس آخر . . ورغم ذلك فهو يضج بالحياة . . الحياة بكل زحامها . .

ثم نصل إلى أول واحـــة . .

اسمها . . الحصوة . .

مجموعة من البيوت الصغيرة مبنية من الصخور . . نفس الصخور الملقاة فى طريقنا . . وأبوابهـا مدهونة باللون الأحمر الفـاقع . . وبئر خـارج الواحة . . وبضعة نساء فى ثيابهن البدوية يدلين فى البئر العميقة ، شادوفاً يرفعن به المـاء . . والنخيل يظلل البيوت . . وأشجار الزيتون . . ورجل يخرج إلينا ، ويصافحنا . . و . . اتفضل شاى . . شكراً يا شيخ العرب . . ونساء ينظرن إلينا من وراء الباب ، ولا تكاد تلتقى عيوننا بهن حتى يختفين . . وأطفال يتجمعون حولنا . . وتحس أنك عدت إلى الحياة . . الحياة أيام سيدنا موسى . .

وأنحنى على طفل . .

— اسمك أيه يا شاطر ؟ !

— موسى . .

وخيل إلى أن تسعة أعشار أهل سيناء يحملون اسم موسى . . والبنات يحملن اسم : موسية . .

وشيخ العرب بجانبنا ولا نكاد نبتعـد عنه ، حتى يرسل إلينا ابنه موسى ، ليطلب منا سيجارة . .

ونعطيه علبة سجاير . .

ويتعجلنا الأسطى أنور . . إننا لن نستريح هنا . . يجب أن نصل إلى حديقة الدير . .

ونصل إلى حديقة الدير ، على أطراف واحة فيران . . وليس معنى ذلك أننا أصبحنا قريبين من الدير نفسه . . لا يزال بيننا وبين الدير ساعتان ! !

ويفتح أمامنا باب خشبي صغير . .

وندخل فى حديقة مزروعة بالعنب . . والعناقيد المليئة تطل فوق رؤوسنا وتكاد تلامسنا . . وأشجار التفاح ، والبرقـوق والزيتون ، تملأ الهواء بعبير حلو . . وخيل إلى أنى أخطو إلى الجنة . . والجنة ليست فى العنب والتفاح والبرقوق ، ولكن فى هذا الهدوء الذى يستقبلنا ، ويزحف على أعصابنا ويخدرها . . ويخرج إلينا قسيس جليل . .

سمين . . وجهه هادىء . . وبين شفتيه ابتسامة هادئة . . وفى عينيه ذكاء . . ذكاء طيب . . ولكنك تحس أنه يستعمل هذا الذكاء كسلاح . . سلاح ماض . . سلاح قوى !

ويقودنا القسيس إلى خميلته وسط الحديقة . . فى وسطها مائدة وحولها مقاعد . . ويجلس القسيس فى بطء وكسل ، كأنه ليس فى حاجة إلى أن يقوم مرة ثانية ونجلس حوله ، والتفت . . فتصدمنى الدهشة . . إن فى أحد أعمدة تكعيبة العنب دفتر تليفون معلق . . دفتر تليفون ! !

هل عندك تليفون يا أبونا ! !

ويضحك أبونا بركليس . . لا ، ليس عندى تليفون . . إنى أحتفظ بهذا الدفتر لمجرد قراءة الأسماء بين وقت وآخر . . وقراءة الأسماء تعيد إلى ذكر الحياة . .

ويقدم لنا أبونا أقداح الشاى . . ويحدثنا . . وعندما نهم بالتقاط صورة له ، يختار بنفسه المكان الذى يقف فيه . . ويسرع ويأتى بقبعته الدينية ويضعها فوق رأسه . . وتطول جلستنا معه ، وكلما طالت اقتربنا من الحياة أكثر من اقترابنا من الله . . إنه يعيش وحده . . ليس معه أحد إلا خـادم من البدو . . ليس معه ولا حتى قسيس آخر . . ورغم ذلك فهو يضج بالحياة . . الحياة بكل زحامها . .

والبيت الذي يقيم فيه أبونا يقع في جانب من الحميلة .. وتدخل البيت .. به يلمع من النظافة .. وفي كل ركن منه فكرة .. اختراع .. قد يكون اختراعاً ساذجاً .. ولكنه اختراع .. خرطوم يمد الماء إلى الحنفية .. وحبل تشده فيفتح الشباك .. و .. و .. وفي كل مكان لافتة مكتوبة باللغة الإنجليزية .. لا تلق الأوراق هنا .. ضع المنشفة في مكانها .. إلى الحديقة .. و .. و .. وتحس أنك في مكان سياحي ، أكثر مما تحس أنك في صومعة رجل دين ..

وأبونا بركليس لا يهتم كثيراً بأسرار الدين .. إنه لا يزال بالنسبة لرجال الدين في درجة « فوفيس » أي « مستجد » وهو لا يطمع في أن يرتقي عن هذه الدرجة .. ولا يحاول .. إنه يكتفي من الدين بأن يكون رجلا طيباً .. وهو يتعمد أن يبتعد عن الدين ورجاله .. هنا أستريح .. أنا هنا ملك زماني ..

ماذا أتى به إلى هنا ؟

ماذا جعل منه راهباً ؟

لقد كان منذ عام ونصف فقط مديرا لإحدى دور السينما في الاسكندرية .. كان يعيش بعقله مع جرجوري بيك وجينا لولو بريجيدا .. ثم فجأة ترك السينما وجاء إلى الدير ولبس مسوح الرهبان ..

لماذا ؟

ويبتسم الأب بركليس ويقول باللهجة العربية المكسرة : هنا مرتاح كتير ! !

ثم لا يزيد ..

وأسأله ، لأجره إلى الحديث عن قصته :

— هل كنت متزوجاً ؟

ويتردد بركليس قليلا ، ثم يقول :

— نعم .. كنت متزوجاً .. وماتت ..

— والأولاد ..

— لا .. ليس عندي أولاد !

ولا تستطيع أن تخرج بشيء أكثر من هذا من أبونا بركليس .. ولكن « البدوان » يروون لك قصة كاملة .. إن لديهم عن كل راهب قصة .. ربما كانت قصة كاذبة .. ولكنها قصة والسلام .. إنهم يروون عن أبونا بركليس أنه كان متزوجاً .. ولم تمت زوجته .. ولكنها صدمته صدمة عاطفية .. فبدأ يحاول أن ينسى .. بدأ يقامر .. وبدد كل ما يملك .. وبعدها جاء إلى الدير .. ليجد الهدوء ..

ونهم بالانصراف .. ويهمس الأسطى أنور في أذني :

— أترك له ثمن الشاي ؟

ودهشت .. دهشت إلى حد الذهول .. وقلت للأسطى أنور :

— كام ؟

— ثلاثين قرشاً ! !

وأخذ مني أبونا ثلاثين قرشاً .. وكل مظاهر التعفف التي بدت عليه هي أنه أسبل عينيه .. وأحسست أكثر إني في مكان سياحي ولست في مكان ديني .. وضاع مني إحساسي بأني قريب من الجنة .. قريب من الله ..

وصاح وراءنا أبونا بركليس

— سلموا لي على أبونا نيكوفورس ..

— الله يسلمك ..

وعادت السيارة تلهث صاعدة إلى الدير . . وسرنا فى طرق واحـة فيران . . طرق ضيقة ملتوية بريئة من يد أى إنسان . . والنخيل يحيط بنا . . نخيل يتزاحم بعضه فوق بعض ، ويصطدم بالسيارة . . وأشجار الزيتون . . وعناقيد العنب . . إنها جنه . . إنها أرض خصبة . . وعلى جانب الطريق مجرى ضيق يجرى فيه المـاء . . من أين يأتى هذا المـاء ؟

من ماكينة الشيخ موسى ! !

والشيخ موسى هو صاحب كل هذا النخيل . . وكل هذه الحدائق . . وعنده ماكينة تشد المـاء من الأرض . . يديرها ساعتين فى اليوم ، ويبيع ماءها للأهالى ، ولحديقة الدير ، وبعض حدائق متفرقة . . وذهبنا إلى الشيخ موسى . . إنه يقيم فى حديقة واسعة مسورة ، تضم بيته وبيوت أولاده . . وعلى جانب من الحديقـة دكان صغير علقت عليه لافتة كتب عليها « شركة وادى فيران للتجارة . . لصاحبها عبد الرحمن موسى وأخوته » . . والدكان لا يحوى سوى مواد التموين ، وبعض المعـدات المنزلية الصغيرة . . ورأينا ماكينة المـاء . . إن الماء قريب . . ستة أمتار وتصل إليه . . والشيخ موسى هو سيد وادى فيران لأنه يملك هذه الماكينة . . ويملك شركة وادى فيران للتجارة ! !

لماذا لا تذهب إلى سيناء عشرات الماكينات ، لتصنع فى سيناء عشرات من الأسياد . . إن المـاء ليس قريباً فى واحة فيران وحدها . إنه قريب فى كثير من أنحاء شبه الجزيرة . . وقد أجريت هناك أبحاث اتضح منها أن أرض سيناء صالحة للزراعة . . صالحة للحياة . . والمسئولية ليست مسئولية الحكومة . . إن أى جماعة من خريجى كلية الزراعة ، يستطيعون أن يحملوا آلة مياه ويذهبوا إلى هناك ويصبحوا أسياداً . . وربما كان كل واجب الحكومة أن تسهل لهم مهمتهم . . أن تخفف من الإجراءات الكثيرة المعقدة التى تفرضها للانتقال إلى سيناء والإقامة فيها . .

وقد سمعت حكاية عن الإجراءات الحكومية . . حكاية رجل يدعى سالم النيل حفر بئراً فى الصحراء قريباً من أبى زنيمة وأقام حول البئر حديقة كبيرة . . حديقة فاكهة ونخيل . .

وكانت نسبة الملوحة فى ماء البئر كبيرة ، ورغم ذلك استطاع أن ينبت الأرض ، وبعد ثلاث سنوات جاء مندوبو الضرائب ، وقدروا أرباح الرجـل بأربعة آلاف جنيه . . طالبوه بها . . فترك لهم الرجل الحديقة بما فيها وانصرف ! !

ومثل هذه الإجراءات لا يمكن أن تشجع على تعمير سيناء . .

وخرجنا من واحة فيران . . إلى وادى طرفة . .

« والطرفة » هو اسم شجر يملأ الوادى . . وينبثق على فروعه مادة صمغية حارة . . هى « المن » التى جاء ذكرها فى الكتب المقدسة . . المن ، والسلوى . . والتى يقال إن قوم موسى كانوا يعيشون عليها عندما تاهوا فى الصحراء . . ويجمع العربان أو البدو هذه المـادة الصمغية ، فى علب من الصفيح ، ويتركونها فى الشمس حتى تسيح ، ثم يبيعونها للسواح الذين يأكلونها تبركاً . .

لقد رأيت المن ولم آكله . . وبقى أن أرى السلوى ، لعلى آكلها !

والطريق ممهد بعض الشىء . . والذى مهده هو سيسيل دى ميل المخرج السينمائى ، عندما كان يخرج فيلم « الوصايا العشر » وكلفه تمهيده عشرين ألف جنيه ! !

ووصلنا إلى وادى البويب . . والجبال تضيق حولنا ، وتفتح لنا باباً ضخماً نخرج منه إلى الوادى الفسيح . . وعلى جنبات الوادى حدائق صغيرة . . كل حديقة لا تزيد عن نخلة وشجرتين . . وفوق تل صغير قبر مطلى بالجير الأبيض . . إنه قبر النبى صالح . . هل سمعت عن النبى صالح ؟ ولا أنا . . وهو على كل حال نبى مشكوك

فى نبوته . . ويقال إنه مجرد الجد الأول لإحدى قبائل البدو التى تقيم فى المنطقة . . وكل رجل مبروك فى سيناء لا يسمى « شيخاً » ولكن نبياً . . وبجانب القبر مظلة يجتمع تحتها الأهالى فى موسم زيارة النبى صالح ، وينحرون الذبائح . .

وبعد قليل . . قبر آخر . . إنه قبر هارون ، أخو النبى موسى ، وترجمانه إلى قومه . .

ثم يدور الجبل مرة واحدة . . ونفاجأ برؤية الدير فى أحضان جبلين من الصخر . .

لقد وصلنا . .

وصلنا بعد خمس ساعات قضيناها نصعد الجبل . .

وارتجف قلبى من الرهبة . . إنى مقدم على التجربة الكبرى . . تجربة مواجهة نفسى ، لأبحث فيها عن الله . .

والسيارة تصعد . وتئن . كأنها تزفر آخر أنفاسها . .

والدير يبدو كقلعة حربية من قلاع القرون الوسطى . . والمكان الذى أقيم فيه يبدو كأن قائداً حربياً ، هو الذى أختاره ، وليس رجل دين . . والروعة التى تحيط به ، هى روعة التاريخ ، وليست روعة التبتل فى حب الله !

وكنت أعتقد إنى سأدخل الدير فى قفص معلق فى حبل يشده الرهبان من أعلى . . كما قرأت فى الكتب . . ولكنى دخلت من باب واسع ، وكثير من الأولاد يتزاحمون حول السيارة ليحملوا حقائبنا . . كأننا وصلنا إلى فندق هيلتون !

ودخلت وأنا أحتفظ برجفة قلبى . . إنى أريد أن يظل قلبى مرتجفاً ، لعل رجفته تساعدنى على الارتقاء إلى الحب الكبير . . وانحنيت لأمر من باب منخفض عتيق من الحديد السميك . . كأنى أدخل إلى إحدى مقابر الفراعنة . . ثم واجهت فناء الدير . . وواجهتنى لافتات مكتوبة بالإنجليزية . . اتجه إلى اليمين . . المكتبة . . إلى الكنيسة . . و . . و . . إن هذه اللافتات تعيدنى إلى الحياة . . لا أظن أن فى السماء لافتات مكتوبة بالإنجليزية ! !

واستقبلنا راهب نشط . . أنفه أحمر . . وعيناه مغمضتان تطلان من تحت نظارة سميكة ، وينطلق من بين تجاعيدها بريق نشط . . غاية النشاط . . وجبين عال يشع بالذكاء . . ذكاء لا يريح . . ذكاء يكاد يثقب رأسك ليصل إلى أفكارك . . وقامة قصيرة ، تتحرك بسرعة . . سرعة الأرنب أو سرعة الغزال . . أو سرعة الثعلب !

إنه ليس راهباً . .

إنه أبونا نيكوفورس . .

مدير إدارة الدير . . وأشهر رجل فى شبه جزيرة سيناء . .

وقد كان نيكوفورس صاحب ورشة ميكانيكية وكهربائية ، ثم دخل الدير . .

لماذا يا أبونا ؟

حباً فى الله . .

ثم يميل على أذنى ويهمس : بينى وبينك المطران أكل مخى !

وكنت أعتقد أن أبونا قد خصنى بهذه الهمسة ، ولكنى اكتشفت أنه يهمس بها فى أذن كل من يزور الدير . . بل إنى قرأت هذه الهمسة فى كتاب عن الدير أصدره زائر قبلى . .

وإذا كان المطران قد أكل مخ نيكوفورس . . فقد أكل نيكوفورس الدير . . استطاع أن يسيطر عليه . . وأن يملى عليه ذكاوه . . وأداره بطريقة حديثة ، وخصص معظم أجنحته لإقامة السواح . . وأقام فيه محطة لتوليد الكهرباء . . ولا تستطيع إلا أن تبدى إعجابك بأبونا وحسن إدارته . . ولكن . . لقد بدد أبونا الطابع الدينى للدير بهذه المستحدثات . . إنك لا تستطيع أن تتوجه إلى الله وصوت محطة توليد الكهرباء يطن فى أذنيك . . إنك هنا تشعر بقدرة نيكوفورس أكثر مما تشعر بقدرة الله ! !

وأين الرهبان ؟

إنهم هناك فى الجناح الآخر . . ولا يقيمون فى صوامع ، ولكن فى حجرات تضاء بالكهرباء . . وهم أربعة عشر راهباً . . فقط . . ربما كانوا موظفين فى الكنيسة أكثر ممـا هم رهبان . . فهم يتقاضون مرتبات . . أربعة جنيهات فى الشهر . . وينتقلون بين الأديرة المختلفة ، بأمر الكنيسة تماماً كما ينتقل الموظف من مكان إلى مكان بأمر حكومته . .

لا . .

لقد انقضى عهد الرهبان الذين كنا نقرأ سيرهم . .

ربما لم يعـد الإنسان فى حاجة إلى الرهبنة والتجرد . . ربما اقتنع الإنسان بأن الله قد وهبه العقل والإرادة ليعيش بهما ، وليس من حقه أن يتنازل عن عقله وإرادته ، ليختبىء من الحياة خلف جـدران دير . . بل ربما كان الدافع الذى أتى بالرهبان إلى هنا . . إلى هذا المكان النائى . . قد انعـدم . . فقد جاءوا منذ ألف وستمائة عام هرباً من الاضطهاد الذى كان يصبه عليهم أعداء المسيحية . . ولم يعد أحد يضطهد المسيحية الآن ، فما حاجتهم إلى الدير ! !

وقادنا أبونا نيكوفورس إلى الحجرات التى خصصها لنا . . حجرات فندق كامل . . وكل ما يميز الدير عن الفندق ، إنك يجب أن تحمل طعامك معك . . وفى وسط الحجرات مطبخ وطباخ يجهز لك الطعـام الذى تحمله ، ويصنع لك القهوة والشاى . .

البيت ١٠٠ قرش

الصعود إلى جبل موسى على جمل ١٠٠ قرش !

الصعود إلى جبل سانت كاترين على جمل ١٥٠ قرشاً !

الراهب الذى يصحبك فى الصعود أجره ١٠٠ قرش !

وتعليمات أخرى . .

نفس القائمـة التى تجدها معلقة على باب حجرتك عندما تقيم فى فندق شبرد !

واستأذن أبونا نيكوفورس ريثما يصاحب فريقاً آخر من السواح . . ووقفت فى نافذة حجرتى أطل على الجبال الضخمة التى تحيط بى . . إنى أحاول أن أسكت عقلى . .

لا أريد أن أفكر . . ولا أريد أن أنتقد . . أسكت يا عقل . . إنى أريد أن أكون عاطفة خالصة أرتفع بها عن الدنيا وأصل بها إلى الله . . ان الارتفاع بالعاطفة أسهل من الإرتفاع بالعقل . . ولكن . . كلما نام عقلى أيقظه صوت وابور الجاز المنبعث من المطبخ . . لن ينام عقلى إلا إذا سكت وابور الجـاز . . ووابور الجاز لا يسكت ! !

ونزلنا نطوف بالدير يصحبنا أبونا نيكوفورس . . نطوف بالأقبية القديمة . . والممرات المنخفضة . . ثم دخلنا حجرة واسعة رصت فيها جماجم . . وعظـام

أذرع وسيقان . . وأذهلتنى الدهشة والرهبة . . ولكن الدهشة والرهبة ما لبثا أن زالتا . .

كما لو كنت أنظر إلى كوم من البطيخ فى دكان فكهانى ! !

إن البساطة التى رصت بها هذه الجماجم والعظام تنسيك رهبة الموت !

وهى جماجم وعظام الرهبان الذين ماتوا فى الدير . . وقد جمعت بهذا الشكل ، لأن أرض الدير صخرية ، ويستحيل أن يحفر فيها كثير من المقابر . . فاكتفوا بقبرين اثنين يدفنون فيهما من يموت ، ويظل فى القبر ثلاث أو أربع سنوات ، إلى أن يتحلل ويصبح عظاماً ، فينقلون العظام إلى الحجرة ويخلو القبر لقادم آخر ! !

ودخلنا الكنيسة . .

رائعة . . رائعة . . إنه شىء لا يصدق !

والروعة هى روعة الفن . .

والفن عبادة . .

إن الفنان الذى قضى من عمره سنوات وسنوات يصنع هذه الأيقونة . . أو هذه اللوحة . . لابد أنه كان يتعبد إلى الله . . إن صدق الفنان وجهده هو عبادته . . وربما لن أصل إلى الله . . إذا كنت فناناً . . إلا عن طريق قلمى . . إلا عن طريق كلمة صادقة ، أو قصة صادقة أكتبها . . ربما كان هذا هو طريقى الوحيد إليه ! . .

وفى الكنيسة كثير من الذهب ، والفضة والجواهر . . كأنك فى مقبرة توت عنخ آمون . . شىء لا يقدر بالملايين قدمه الأباطرة والأغنياء على مر السنين . .

إن الأغنياء يتعبدون إلى الله بأموالهم . . والفنانون يتعبدون بفنهم . . والفقراء ! ؟ إنهم لا يملكون إلا قلوبهم ! . .

وكنيسة أخرى . . كنيسة العليقة . . والعليقة هى الشجرة التى أضاءها الله أمام موسى وخاطبه من ورائها وقد أقيمت الكنيسة فى مكانها . .

ووقف أبونا يطلب منا بلغته العربية المكسرة ، أن نخلع أحذيتنا . . ويشرح لنا لمـــاذا :

ــ ربنا كلمتو موسى . . يا موسى شيل المتوفلى . . هنا مكدس ! (أى مقدس) . .

وأبونا يقص الآية التى وردت فى الإنجيل :

« يا موسى أخلع حذاءك من رجليك لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة » . . والآية التى وردت فى القرآن : « . . . فلما آتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى » . .

والكنيسة صغيرة . . مرعبة . . وكادت الراحة تزحف على أعصابى ، لولا أن بهرنى الفن . . الفن المرسوم على الجدران ، والمدلى فى الأيقونات . . إن الفن يلهيك عن الله ، بقدر ما يذكرك به . .

وعندما أطل من نافذة أخرى على الجبال التى تحيط بى . . ما هذا إن فى وسط الجبل الصخرى تنبثق شجرة صنوبر ضخمة . . ماذا أتى بهذه الشجرة إلى هنا . من أنبتها ؟ ! لقد زرعها الرهبان منذ خمسمائة سنة . . وفوق كل قمة من قمم الجبل . صليب ضخم منصوب أقامه الرهبان منذ خمسمائة سنة . . إن قوة الإيمان كانت — زمان — تزرع الشجر وسط الصخر . . وتنصب الصلبان فوق القمم . . وكل شىء فى الدير صنع منذ خمسمائة سنة . . أو منذ ألف سنة أو منذ ألف وستمائة سنة . .

أيام الإيمان بالله . . أيام كانت العقول لا تشغلها المذاهب الاجتماعية والسياسية . . فقط الإيمان بالله . . ولا شيء صنع حديثاً في الدير إلا المولد الكهربائي الذى استورده أبونا نيكوفورس . . وصعدت إلى الشجرة . . وبجانبها صخرة تنز قطرات من الماء . . قطرات صغيرة كالدموع . . إن هذه الصخرة تبكي طوال العام . . لماذا تبكي . . ومن أبكاها . . ومن أين جاءت هذه الدموع . . قد يكون في علم الجيولوجيا تفسير لكل ذلك . . ولكني لا أريد أن أسمع تفسيراً علمياً . . أريد فقط أن أملأ قلبي بالإيمان . . الإيمان بقدرة الله ! . .

ومكتبة الدير . . إن كل كتاب فيها يعتبر تحفة أثرية تساوى كنزاً . . وفيها الرسالة التى أرسلها النبي محمد إلى رهبان الدير يؤمنهم فيها على حياتهم وأموالهم . . وشهد على هذه الرسالة أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب . . وكثير من الصحابة . . وقد استولى السلطان التركي على أصل الرسالة وترك صورة منها للرهبان . .

وجلسنا في المساء يحدثنا أبونا نيكوفورس عن أيام الاعتداء . . لقد جاء موسى ديان إلى الدير ، واتخذ منه ثكنة للبوليس الحربي . . واستقبله الرهبان برؤوس مرفوعة . . إنهم في حماية الله . . في حماية الكنيسة . . لن يستطيع أحد أن يمسهم . . ورغم ذلك فقد فتش اليهود الدير بحثاً عن الجنود والضباط المصريين . . فتشوا في كل مكان . . ونسوا أن يفتشوا مكان الطاحونة المهجورة . . وفي الطاحونة المهجورة كان يقبع أحد عشر جندياً مصرياً وضابطان . منسحبين من الطور . . وجاء الليل . . والبوليس الحربي الإسرائيلي يحرس أبواب الدير . . وفتح أبونا نيكوفورس باباً سرياً قديماً تسلل منه الجنود المصريون ، وصحبهم بدوى في طريق مجهول . . إن الجبال التى تبدو أمامك كأنها حائط مسدود ، لها أبواب وممرات يعرفها البدو . . وقد صحبوا جنودنا فيها حتى أوصلوهم إلى مواقعهم . .

وقصة أخرى . .

جاء أحد البدو إلى أبونا نيكوفورس وأبلغه أن جنود إسرائيل سرقوا إحدى عنزاته . . كان يرعاها عندما وقفت بجانبه سيارة إسرائيلية ، ونزل منها بعض الجنود الأبطال ، وخطفوا عنزة ! !

وذهب أبونا إلى القائد الإسرائيلي . . إن كل هؤلاء البدو في حماية الدير ، وهو يطالب برد العنزة إلى صاحبها . .

وقال القائد الإسرائيلي إنه سيحقق ، وإذا اتضح من التحقيق أن القصة كاذبة ، فإنه سيعتقل الرجل الذى أبلغ عن السرقة ، وسيأمر بإعدامه قدوة لبقية الأهالي وفي نفس الوقت سيعتقل أبونا نيكوفورس حتى لا يعود إلى تشجيع البدو على تحدى جنود الاحتلال . .

ووافق أبونا . .

وذهب مع القائد إلى موقع الجنود ، وبدأ القائد التحقيق . . وأنكر الجنود . . ولا شيء يثبت عليهم التهمة . . وارتفعت ابتسامة الشماتة على وجه القائد . . وأحنى أبونا رأسه قليلا ثم قام ولف حول المواقع وعاد يحمل عظام العنزة ، التى تخلفت بعد أكل لحمها ، وألقاها أمام القائد . . قائلا : الذى أعلمه أن ليس في تموين القوات الإسرائيلية لحم الماعز ! !

واختفت شماتة القائد الإسرائيلي ، وأحنى رأسه . .

وجاء الليل وأبونا يحدثنا . .

والقمر . .

والهدوء . . الهدوء يا رب . . هدوء النفس . . ولكن في الغرفة المجاورة . . فريق من السواح يسكرون ، ويقهقهون . . ويطلقون نكاتاً خارجة . . وأبونا

ساكت . . إنه يؤمن بأن قليلا من الخمر يصلح المعـدة . . و « القليل » مسألة نسبية يختلف فيها الأفراد ! !

أين المفر ؟ !

أين المفر إلى الله . .

لعلى أجد المفر هناك . . فوق قمة جبل موسى . . بعد أن أصعد ألف قدم !

واتفقت مع أبونا على أن يعد لنا الجمال لنصعد بها فى صباح اليوم التالى . .

وأيقظنى « ميخا » فى الساعة الخامسة . . و « ميخا » بدوى يعمل فى الدير . . ويأخـذ نظير عمله كمية من الحبوب ومن الزيت . . واسمه « صالح » ولكن الرهبان ينادونه . . ميخا ! !

لمـاذا . . لا أدرى ! !

ووجـدنا فى انتظارنا راهباً شاباً ، يعلق على كتفه حقيبة صغيرة . .

أين الجمـال ؟

ولم يرد الراهب الشاب . . إنما سار أمامنا وسرنا وراءه . . وبدأنا نصعد الجبل . . وكنت أصعد فى خطوات نشطة . . وابتسامة فوق شفتى . . وقلبى مملوء بالبشر . . إنى صاعد إلى القمة التى صعد إليها النبى موسى ، ليخاطب ربه ، ويتلقى وصاياه . .

وفتح الراهب حقيبته وناول كلا منا قطعة من الحلوى . . وازددت بشراً . .

لابد أن الراهب حسب حساب كل شيء فى رحلة الصعود .

ومضت نصف ساعة ونحن نصعد . .

والراهب أمامنا يسير فى خطوات سريعة ، ويقفز كالعنزة وبدأ صدرى ينهج .

سأستريح . .

لا . . لأستمر . .

وملأت قلبى بذكر الله . . وصعدت . .

وصدرى يزداد نهجاً . . إنى ألهث . . أنفاسى تتمزق . .

وجلست على صخرة ، وأنا أهمس :

ـ عطشان يا أبونا ! !

وفتح الراهب حقيبته وأخرج زجاجة ماء فى حجم بزازة الطفل . . إنها كل ما يحمله من المـاء . . ونحن خمسة رجال . .

وأخذ كل منا قطرة يبلل بها شفتيه . .

وعدت أذكر الله . . وشددت قامتى . . وعدت أصعد فى خطوات قوية . . إنى أريد أن أقابل الله قوياً . .

والوادى يبتعد من تحت أقدامنا . .

والقمة لا تزال بعيدة . . بعيدة . .

وأنا لا أزال أصعد . .

وبدأت أضعف . . بدأت أخاطب الله فى توسل . . وضعف . . يارب أعنى . .

وألهث . . ألم فى رئتى . . لا . . إنى لن أستطيع أن أستمر . .

وسقطت على الأرض . . ثم جلست . . ولكنى رقدت . . وصدرى كالمنفاخ المثقوب . . وأنفاسى كالفحيح . .

وتوقف الركب . .

والراهب متعجل . . إنه لا يتعب . . إنه حتى لا يعرق . .

وقمت من رقدتى . . وركبتاى ترتعشان . . وألم . . ألم يحرق أعصابى . . وشفتاى جافتان . .

عطشان يا أبونـــا . .

ودارت علينا البزازة . .

ورقدت مرة ثانية على الأرض . . وأبونا يتعجلنى . . ثم قمت . . وبدأ الألم يدفعنى إلى الندم . . الندم على هذه الرحلة . . ورغبتى فى الوصول إلى الله تضعف . . إن الله فى الوادى كما هـــو فى القمة . . فلمـــاذا أتعب نفسى كل هذا التعب . .

عطشان يا أبونا . .

آسف . . لم يعـــد معى ماء . .

ونكست عينى فى يأس . .

ومضت ساعتان ونحن نصعد . . أرقد وأقوم . . وشفتاى بدأتا تتورمان من العطش . . وأحسست كأنى أعاتب الله لأنه يكلفنى كل هذه المشقة . .

ووصلنا إلى مكان من الجبل تبدأ عنده القمة الصخرية . .

إننا نصعد على سلالم نحتها الرهبان فى الصخر . . منذ خمسمائة سنة . . وكل سلمة فى ارتفاع حجر من أحجام الهرم . .

كم سلمة يا أبونا . .

٧٥٠ سلمة . .

تصور أنك ستصعد على قدميك ٧٥٠ سلمة من سلالم عمارة . . لا سلالم كل منها فى ارتفاع حجارة الهرم . .

وفكرت فى العودة . .

إنى لن أستطيع . .

ولكن ، لا . . لن أعود . . حتى لا يشمت فى أبونا !

وبدأت أصعد . . ربما صعدت عشرين سلمة ، ثم ألقيت نفسى راقداً على الصخر . . رئتاى . . صدرى . . إنى أحس بدمى يكاد ينبثق من أنفى . .

وأغمضت عينى . . ثم فتحتهما فجأة وأنا أشعر بشعور جارف من التحدى . . تحدى الجبل . . تحدى هذه السلالم . . لم أعد أفكر فى الله . . ولم أعد أحس به . . كل ما أحس به هو التحدى . . معركة . . معركة بين الإنسان والجبل . .

وبدأت أصعد . . أحياناً كنت أصعد على قدمى ويدى . . وقلبى يتمزق . . وأنفاسى تفح كالمنفاخ المثقوب . . ثم أقوم وشعور التحدى يملأنى . . يجب أن أصل . . يجب أن أصل . . . ووصلت . .

وفوق القمة كنيسة . . على بابها جرس كبير يتدلى منه حبل . . وأمسكت بالحبل وقرعت الجرس . .

قرعته مرة وأنا أهتف باسم ابنى محمد . .

وقرعته مرة ثانية وأنا أهتف باسم ابنى أحمد . .

وقرعته مرة ثالثة وأنا أهتف باسم زوجتى . .

لا أدرى لمـــاذا . . ربما كنت أريد أن أعلن لهم انتصارى على الجبل . . وربما خيل لى إنى أقرع لهم جرس السماء لعلها تفتح لهم أبواب السعادة . .

ووقعت على الأرض مغشياً على . . تقريباً ! !

عطشان يا أبونا . .

لا ليس هنا ماء . . إن الذين بنوا الكنيسة ليذكروا الله ، نسوا الإنسان فلم يصنعوا له المــاء . .

وشفتاى تزدادان تورماً . .

وأبونا يتعجلنى لنعود إلى الدير . . وصرخت فيه ، وقد نسيت كل شىء إلا إرهاق . .

ـ لا يا خواجة . . دعنى أسترح . .

واسترحت . . ربع ساعة فقط . . كل ما سمح لى به أبونا من راحـــة . . وقت ودخلت الكنيسة وأوقدت فيه الشموع . . وبجانب الكنيسة جامع مهجور مهـدم . . قرأنا فيه الفاتحة ! . .

وأنفاسى الممزقة تبعـــدنى عن الله . .

وعدنا ننزل . .

نزلنا الـ ٧٥٠ سلمة . . ثم اتجهنا إلى طريق آخر من الجبل . . طريق ينزل رأسياً فوق الصخر . . وكله سلالم . . كم سلمة يا أبونا . .

٣٨٠٠ سلمة . .

تصور أنك تنزل ثلاثة آلاف وثمانمائة سلمة على قدميك . . وكل سلمة فى ارتفاع أحجار الهرم . .

لا مفر . . يجب أن ننزل . .

وأحسست بحالة عصبية تنتاب ركبتى . . إنى لا أستطيع أن أقف عليها . . ولكنى أندفع نازلا . . وأبونا يسبقنا ويقفز فوق السلالم فى مرح . . إنهم يسمونه فى الدير . . فأر الجبل ! !

والعطش . .

هل جربت العطش ! !

إنك تحس بشفتيك تتورمان ، حـــتى كأن كل وجهك أصبح شفتين . وسيخ من النار يمتد فى حلقك ويمتد حتى صدرك . . ومعـــدتك تنقبض كأنها تذبـــل . .

إنه عذاب . . عذاب . .

والسلالم تلف حول الصخور . . ثم تصل فجأة إلى فناء واسع فى وسطه شجرة صنوبر ضخمة . .

وكهف . . وبئر . .

ماء . .

وأزحف على يدى وقدمى نحو البئر . . إن فيه ماء . .

وألقيت حجراً لأتأكد أن فيه ماء . . ماء بعيد . . ولكن ليس هناك حبل ولا وعاء أدليه فى البئر لأشد المـــاء . .

لا رحمة لى من العطش . .

والكهف كان صومعة راهب . .

وعندما ننزل . . ونمر على صوامع الرهبان المقامة بين الصخور . . رهبان زمان . . أيام الإيمان . . ولم يكن هؤلاء الرهبان يكتفون بالإقامة فى الدير ، بل كانوا يصعدون إلى الجبل ويقيمون فيه . . إمعاناً فى العزلة . . وفى التقشف . . وفى التجرد من الحياة . . والاقتراب من الله . .

ولكنى لا أحس بالله . .

إنى أحس بالتعب . .

إنى أقول يا رب . . ولكنى لا أحس بندائى يتجاوب فى صدرى . . إنى لست مخلصاً فى ذكر الله . . لست متجرداً له . . إن كل ما أريده هو شربة ماء . . ومكان أنام فيه . .

ووصلنا . .

إلى الدير . .

وسقطت على الباب . . لم أستطع الوصول إلى حجرتى . . وجاءوا لى بماء . . وشربت . . شربت كثيراً . . ثم شربت أكثر . . وقمت يساندنى أبونا حتى وصلت إلى حجرتى . .

ونمت . .

لقد صعدت إلى القمة . . نعم صعدت . . ولكنى لم ألتق بالله . . إنما التقيت بالتعب والعذاب . .

وهذا الصعود والهبوط يقطعه الرجل العادى عادة فى نهار كامل . . فى تسع ساعات . . ولكن أبونا . . فأر الجبل . . جعلنا نقطعه فى خمس ساعات . .

سامحه الله . .

وقمت من النوم كأنى أقوم من مرض . .

ضعيفاً . . مسترخياً . .

وأحسست فى ضعفى . . بهدوء النفس . . بالسكينة . . باقترابى من الله . .

إن الإنسان لا يقترب من الله إلا إذا أحس بضعفه !

. . .

وكتبت فى دفتر زيارات الدير :

« جئت أبحث عن نفسى » !

هل وجدتها ؟

لا . . .

ماهى المرأة ؟ من هو الرجل الذى تعجب به المرأة الحديثة ؟

مصطفى محمود يقول إن المرأة لا تعجب إلا بالرجل الشرير . . الرجل الذى يستطيع أن يبرر لها الخطيئة . . ويطلق الحب إلى آخر حدود الانحلال . . ويمنحها مع ساعة سعادة عشر ساعات من الألم الرجل الذى يشعرها فى كل دقيقة أنه سيتخلى عنها . . وكل ما تشترطه المرأة فى هذا الرجل الشرير هو أن يكون خفيف الدم . .

ويدلل مصطفى على صدق رأيه بأن المثل الأعلى للرجل أمام المرأة الحديثة هو جيمس دين وكل أدوار جيمس دين السينمائية تمثل رجلا شريراً . .

أما أنا فكان من رأيى أن المرأة الحديثة والمرأة القديمة على السواء تعجب بالرجل القوى والقوة ليست قوة الشر إن الشر شذوذ وليس قوة كما أن القوة ليست قوة عضلات فالعضلات تمثل فى الرجل جانب الحيوان . . إنما القوة هى قوة الشخصية وقوة الخلق . . وجميع الرجال الذين تهافتت عليهم النساء على مر التاريخ كانوا على خلق دون جوان . . وكازانوفا . . وروميو . . و . . و . . كلهم يمثلون قوة الشخصية وقوة الخلق . .

إن نظرة المرأة للرجل لا تختلف عن نظرة الرجل للمرأة والرجل قد تثيره المرأة الشريرة ولكن المرأة الفاضلة تثيره أكثر فيتمناها ويشتهيها ويطرق كل الطرق إليها إلى أن يجد طريق الزواج إن الفضيلة أكثر إغراء من الشر سواء فى الرجل أو المرأة . . إن الفضيلة شيء صعب . . شيء نادر . . ومن هنا تستمد اغراءها . .

ومن هنا تهافت المرأة على الرجل الفاضل أكثر من تهافتها على الرجل الشرير والرجل الشرير قد ينجح مع إمرأة أو اثنتين ولكنه لا يستطيع أبداً أن يصل إلى درجة تهافت النساء عليه . .

وقاطعنى مصطفى محمود : وجيمس دين يا أبو الحسن . .

قلت : إن جيمس دين لا يمثل أدوار الشر . . إنه يمثل دور الشاب الذى يعانى من عقدة نفسية تغلبه على أمره . . شاب مريض يثير عطف البنات ، ويثير فيهن غريزة الأمومة فيتعلقن به . .

وعاد مصطفى محمود يسألنى : وكيف تحدد الرجل الفاضل ! . .

قلت : إنى أكتفى بالمبادىء العامة للأخلاق . . الشهامة والصدق والأمانة ومواجهة المسئولية . . . إلخ . . ولا تهمنى المظاهر فإنى أعرف رجالا مظهرهم فاضل وأخلاقهم زفت ، وأعرف رجالا مظهرهم زفت وأخلاقهم فاضلة . .

وقال مصطفى محمود : إن أكثر الرجال نجاحاً مع النساء فى نظرى هو محمد عبد الوهاب . . وعبد الوهاب لا يمثل الفضيلة كما تعنيها أنه لا يمثل إلا نفسه إن مبادئه وأخلاقه هى نفسه . . إنه أشد الرجال أنانية . .

قلت : إن النساء لا يتهافتن على عبد الوهاب ولكنهن يتهافتن على فن عبد الوهاب وعدد الرجال الذين يتهافتون على فن عبد الوهاب لا يقل عن عدد النساء . . إن عبد الوهاب موضوع آخر . .

واستمرت المناقشة بين مصطفى محمود وبينى من الاسكندرية حتى القاهرة . . ولم يقتنع مصطفى برأيى ولم أقتنع برأيه . . احكموا بيننا . .

صـــورة فى الصيف

ليلة من ليالى الصيف . . والهواء راكد ثقيل وعرق لزج كقطرات الصمغ وأجساد مرتخية مفككة وقطـع من قشر البطيخ متناثرة على الأرض وبائع الترمس واقف بعربته بعيداً وقد كف عن النداء وأسدل جفنيه على عينيه . . وكانوا جلوساً فى استرخاء على مقعـد حجرى فى شارع الكورنيش ، والنيل تحت أقدامهم وقد فتحوا قمصانهم عن صدورهم وشمروا أكمامهم وشبابهم يتنفس فى ضيق فوق وجوههم . .

وقال رضوان :

– كان لازم الحكومة تصرف للموظفين فى الصيف علاوة بطيخ . . ده أنا ماهيتى كلها راحت على البطيخ . .

وقال محمـــد :

– نفسى أروح اسكندرية . . يا سلام على اسكندرية فى اليومين اللى زى دول . .

وقال منصور :

– تيجو ننتحر . .

وقال ممـــدوح :

– أنا نفسى ألاقى بنت تحبنى وأحبها . . بنت مالهـــاش أب ولا أم ، وتتمشى معايا على الكورنيش لغاية الصبح . .

وقام رضوان :

– الماهية بتخلص يوم عشرة فى الشهر . . حتى الحكومة تقبضنا يوم بيوم علشان الماهية ما تخلصش . .

وقال منصور :

– تيجو ننتحر ! !

وقـــال محمـــد :

– لازم الشعب يصيف فى اسكندرية على حساب الدولة . .

وقال ممـــدوح :

– الواحد لو حب بنت تقوله اتجوزنى . . ولو حب يتجوزها تقول فين المهر . . يدور على المهر ما يلاقيش . . يبقى لا عمرنا حانحب ، ولا نتجوز .

وقال منصور :

– تيجو ننتحر ! !

وسكت الأربعة برهة ثم قال رضوان فجأة : وننتحر إزاى ؟

وقال محمـــد :

– أنا ما انتحرش إلا فى البحر الأبيض المتوسط !

وقال ممـــدوح :

– ما هو الانتحار كمان لازم له فلوس !

وقال منصور :

– ولا فلوس ولا حاجة . . الانتحار أرخص من البطيخ وأرخص من الترمس .

وسكت الأربعة . .

ونظروا فى مياه النيل طويلا وهم صامتون . . ثم قاموا يجرون أجسادهم المرتخية المفككة . . والهواء راكد ثقيل . . وعرق لزج كقطرات الصمغ وقشر البطيخ وبائع الترمس وقد فتحوا قمصانهم عن صدورهم . . وشبابهم يتنفس فى ضيق فوق وجوههم ! !

حوادث وخواطر

حاولت أن أكون طبيباً نفسياً . . فقد جاءتنى فتاة تشكو من ارتباك حياتها . . حياتها فى البيت . . وحياتها فى العمل وحياتها مع الرجل الذى تحبه وتركتها تتكلم . . تكلمت كثيراً وفى أدق شئونها . . وقالت ضمن حديثها إنها تحب أكل الحصرم وأكل ثمار المانجو الخضراء قبل نضوجها . . وقاطعتها :

— ألا تشعرين بلذعة الحصرم وأنت تأكلينه ؟ !

قالت وهى تطوف بلسانها فوق شفتيها كأنها تشتهى فداناً من الحصرم :

— أحس بها . . إن جسدى كله يتقلص عندما أضع حبات الحصرم فوق لسانى وأمضغه بأسنانى . .

ولكنى أستعذب هذا التقلص . . وأتمادى فيه . . وكدت أقول لها إنها مريضة « بالماشوسيزم » أى مرض تعذيب النفس ما دامت تستعذب أكل الحصرم . . ولكنى خفت أن أربك حياتها أكثر بهذا التحليل فبدأت أبحث من تحليل آخر لحبها للحصرم والمانجو الفجة . . وقلت لها :

— ما ينقصك هو أن تصبرى على الحصرم حتى يصبح عنباً وأن تصبرى على المانجو حتى تنضج ولو صبرت على كل ما يقع لك لاستطعت أن تجدى حلا لجميع مشاكلك . .

قالت وهى تنصرف :

— صبر إيه يا أستاذ . . ما أنا صابرة أهو ومافيش حاجة بتتحل . . ده بختى يا أستاذ . . بختى المقندل ! !

لقاء فوق الجبل

فى مقهى أبو زياد فوق قمة الجبل . . والنبع الصافى يجرى تحت أقدامنا ويعزف لنا لحن الخلود . . وشجرة الصنوبر تقف بجانبنا وتمد ذراعيها فوق رؤوسنا كالأم الحازمة . .

ورأيتها من بعيد . . فتاة لعلها فى الرابعة عشرة . . ممشوقة كغصن الورد . . شقراء فى لون النور وكان حولها أطفال كثيرون . . لا يمكن أن يكونوا جميعاً أخوتها . . وكانت تلاعبهم وتضاحكهم ثم أجلستهم حول المائدة ودارت فوق رؤوسهم تطعم هذا وتنهر ذاك وتميل فتقبل تلك . .

وأخذت أرقب هذه الأمومة المبكرة كانت تضفى حولها جواً صافياً من الحنان والطيبة كأنها طفلة تلهو بعرائسها . .

ثم شغلت عنها بالجبل والنبع وأشجار الصنوبر . . وفجأة أحسست بظل رقيق يلف حولى ورفعت رأسى فوجدتها أمامى . . لم تكن تبتسم . . كانت ترتعش كأنها غاضبة . . وقالت وكلماتها لا تستقر فوق شفتيها :

– هل أنت الذى تكتب ؟

قلت وأنا أضم الطهر والنقاء إلى عينى :

– نعم . .

قالت منطلقة فى صوت صراخ المكتوم وكأنها تحاسبنى :

– خبرنى . . هل بطلات قصصك بنات حقيقيات . . بنات فى الدنيا ؟

قلت :

– نعم . . .

قلتها فى بساطة دون تعمد فأنا لا أحاول أن أجيب على السؤال جاداً . . أحياناً أقول نعم وأحياناً أقول لا . .

ولكنها لم تأخذها فى بساطة . . غضبت وارتفعت الدماء النقية إلى وجنتيها كراية الثورة . .

وقالت : لا . . ليس فى الدنيا بنات كبنات قصصك . .

قلت :

– صدقينى . .

قالت فى حدة :

– أنا لا أريد أن أكون مثلهن . .

قلت :

– يا ابنتى . . إنى أعرضهن عليك حتى لا تكونى مثلهن . .

قالت وهى تدق الأرض بقدمها الصغير :

– لست ابنتك . . إنى أكبر مما تعتقد . . إنى فى الخامسة عشرة وبعد شهور سأكون فى السادسة عشرة . .

قلت مبتسما :

– حذار . . إنك تتكلمين كبطلات قصصى . .

وسكتت برهة وهى تنظر إلى بعينين ثابتتين كأنها لا تدرى ماذا تقول أو ماذا تصنع بى . .

ثم أدارت ظهرها وهى تقول :

بخاطرك يا أستاذ . . .

وراقبتها من بعيـــد . .

لم تعـــد تلعب مع الأطفال . . كانت تفكر . .

• • •

أوراق ضائعة

قالت له :

— لقد فقدت ثقتى فيك . . حاول أن تستعيدها . .

قال :

— إنك عندما تفقدين ثقتك فى فكأنك فقدتينى فحاولى أنت أن تستردينى . .

قالت :

— حاول أنت أن تعـــود . .

قـــال :

— أنا لم أذهب . . أنا لا زلت بجانبك أنت الذى ذهبت عنى . . ولو حاولت أن أستعيدك فلن أستطيع . . ولو أقسمت لك على القرآن فسيداخلك شك فى يمينى . . إن لم تجدى آثار أحمر شفاه فى منديلى فقد تتخيلين أنى مسحت شفتى فى منديلها . . ولو لم أخرج من البيت مساء فقد تتصورين أنى أقابلها صبحاً . . ولو سألت عنى فى التليفون ووجدتنى فى مكتبى سيتهيأ لك أنى معها . . لا . . إن الثقة عندما تصاب بالشك فإنها أصيبت بالسرطان كلما بترت أثراً من آثاره امتد فى أثر آخر . .

قالت :

— كأنك تقول إنه لا أمل لنا . .

قـــال :

– الأمل الوحيد فى نفسك .. حاولى أن تقنعى نفسك بأن ما أصبت به ليس سرطاناً .. مجرد ورم مؤقت وسينتهى ..

قالت :

– سأحاول ..

قـــال :

– سأتركك إلى أن تستعيدى ثقتك فى ..

قالت ملهوفة كأنها تتوسل :

– لا .. لا تتركنى .. إنى مريضة كما تقول .. إنى أتألم حتى الورم المؤقت يؤلم ..

(هذا مشهد من قصة بدأت أكتبها منذ ثلاث سنوات ولم أتمها حتى اليوم .. عثرت على أوراقها وأنا أحاول أن أشغل نفسى بشىء يريحنى من رأسى) .

* * *

وانتصرت العروس

شاهدت فيلماً عن مشكلة نفقات حفلات الزفاف .. المشكلة الأبدية .. مشكلة كل عصر وكل طبقة .. ورغم ذلك فهى مشكلة لم تحل ولا تزال حفلات زفاف تتسلل إلى جيوب الناس كالنشال الماهر وتسرق كل ما فى الجيب وما فى الغيب أيضاً ..

وخلال مشاهد فيلم .. كنت أتذكر صديقاً لى تزوج منذ خمسة عشر عاماً .. كان أيامها شاباً ثائراً .. لم تكن ثورته لها حدود ولا وعى .. كان لا يقتنع بشىء لمجرد أن الناس تواضعوا عليه .. ولا يؤمن بقانون لمجرد أن الدولة أقرته .. كان عنيفاً عنيداً .. وأحب بكل عنفه .. وعناده .. وأقدم على الزواج وهو أشد عنفاً وعناداً .. لا مهر ولا شبكة ولا حفلة زفاف ولا شىء أبداً .. وظل حتى آخر أسبوع قبل الزفاف وهو معتقد أنه منتصر بعنفه وعناده وأن أهل الزوجة قد رضخوا له ..

وجاءته عروسه تقول فى خفة ودعة :

– سأرتدى ثوب العرس ..

وصرخ :

– لا .. مستحيل .. لماذا ترتدين العروس ثوباً خاصاً .. إنى لم أحبك وأنت ترتدين هذا الثوب .. أحببتك بثوبك هذا وسأتزوجك بنفس الثوب .

قالت فى انكسار :

– إنى سأرتديه مرة واحدة فى حياتى فلا تبخل به على . .

وصرخ :

– أنت سترتدينه للناس لا لى . . وأنا الذى أتزوجك لا الناس . . مستحيل . . إنى لست مقتنعاً بهذه التقاليد السخيفة . . لماذا يكون ثوب العرس أبيض . . لماذا لا يكون وردياً . . إنى أحب الورود أكثر فلماذا يفرض الناس على اللون الأبيض . . ولماذا يكون فضفاضاً طويلا لماذا لا ترتدى العروس بنطلوناً مثــلا إنى أحبك وأنت ترتدين البنطلون . . ولماذا تضع العروس طرحة على رأسها إنى أحب أن أرى ضفيرتك وأريد أن أراها فى كل لحظة وخصوصاً فى هذه اللحظة . . لماذا كل هذه التعقيدات .. سنذهب ونتزوج .. مال الناس ومالنا . .

وجرت دموع صامته فوق وجنتى العروس ثم ارتفع تشنجها ثم أسقطت رأسها فوق صدره وأخذت تبكى كأنها تبكى عمرها كله . .

قال وهو يربت على كتفها ثم يضمها إلى صدره :

– لا تبكى . . حاولى أن تفهمينى . . و . .

وقاطعته وهى تنشج :

إنى أفهمك . . إنك على حق . . ولكن ما أريده أقوى من فهمى وأقوى من الحق . . لقد عشت حياتى كلها أحلم بهذا الثوب . . كل البنات يحلمن به . . وأنا وحدى سأحرم منه . . كأنى لم أتزوجك . .

ولان . . وبدأ يقدر أن عروسه لا يمكن أن تكون فى مثل عنفه وعناده . . إنها أرق من ثورته . . فسمح لها بارتداء الثوب . .

ثم لا يدرى ما حدث بعــد هذا . . لقد دارت الحوادث بسرعة عجيبة حتى لم يستطع أن يلاحقها أو يوقفها . . ولكنه وجد نفسه فى حفلة زفــافه . .

ووجـــد نفسه يرتدى الأسموكنج ويجلس فى الكوشة والراقصة ترقص أمامه . . ووجد نفسه يشترى علب الملبس ويدعو المدعوين ويشترى شبكة ويساهم فى انتقاء الجهاز .. كل شيء حدث وكأنه لم يكن ثائراً على التقاليد ولا عنيفاً ولا عنيداً .

إنه لا يزال حتى اليوم وبعد خمسة عشر عاماً لا يدرى كيف حدث كل هذا ولا كيف تنازل عن ثورته وعناده . . وأحياناً ينظر إلى وجــه حماته ثم ينقل بصره إلى وجه زوجته محاولا أن يتذكر كيف خدعتاه فى ثورته.. ثم يفضل ألا يتذكر . .

. . .

إنتصار الحب

إنه يعمل . . ويعمل كثيراً . .

لا تسألوه لماذا يعمل . . ولا تسألوه لماذا لا يخفف العبء عن نفسه . . فهذه هي طبيعته . . أن يجلس الليل كله وظهره منحن فوق أوراقه وقلمه بيده . . وهو لا يشكو من العمل . . ولكنه أحياناً ينتفض وهو يشعر بوخز حاد . . ويلتفت فيجد سكيناً مغروزاً فى ظهره . .

ويدير عينيه ليبحث عن صاحب السكين فلا يجد أحداً خلف ظهره . . إن خلف ظهره ظلاماً والنور فـوق قلمه . . وفوق الأوراق التى يسطرها . .

ويبتسم فى مرارة وينتزع السكين من ظهره . . ويعود يعمل . . ويعمل كثيراً . وكأن شيئاً لم يحـدث . .

وتتوالى السكاكين . .

وهو لا يزال ينزعها ثم يحنى ظهره فوق قلمه ليتلقى سكيناً آخر . .

إنهم لا يريدونه أن يعمل لأنهم لا يعملون . .

لا يريدونه ناجحاً لأنهم فاشلون . .

لا يريدونه نظيفاً لأنهم متسخون . .

لا يريدونه حراً لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا أحراراً حتى لو كانوا خارج السجون . .

من هم ؟ ؟

لا يعرف . . ربما لأنه لا يريد أن يعرف . . فهو لا يبحث أبداً عن أفراد ولكنه يبحث دائماً عن المجموع . . وقد يكون بين الأفراد السافل والحقير والشرير . . ولكن المجموع دائماً طيب كريم نقى . . وقد نصره المجموع دائماً وحارب الأفراد دائماً . .

والمجموع يعلمه الحب ويمنحه الأمل والسلام والثقة ولذلك يتعلق به . . والأفراد يعلمونه الحقد والكراهية والحرب . . ولذلك لا يريد أن يعرفهم . . إنما يغفر لهم دون سابق معرفة . .

وقدمت فيه وشايات كثيرة . .

وأثيرت حوله إشاعات دنيئة . .

وشايات وإشاعات من قوم ليس بينه وبينهم شيء إلا أنهم قوم متبرعون . .

وأحياناً يفيض الخير بالإنسان فيتبرع به . . وأحياناً يفيض الشر بالإنسان فيتبرع به أيضاً . .

وقلب هذه الوشايات والإشاعات بين يديه ثم ألقى بها فى سلة المهملات كأنه ينفض سيجارته

وعاد يعمل . . يعمل كثيراً . .

وصاح فيه صاحبه :

— لماذا لا تؤذهم . . أصحاب هذه الوشايات والإشاعات ؟ ؟

ورفع رأسه عن أوراقه وقال فى هدوء :

– لا أستطيع . . إن إيذاء الناس موهبة ليست لى . . كل ما أملكه هو الحب . . لو أرادوه فهو لهم ؟ ؟

وصاح صاحبه :

– الحب حتى لهؤلاء ؟ ؟

قال وقد اتسعت ابتسامته :

– لقد انتصرت دائماً بالحب . . انتصرت حتى على هؤلاء ؟ ؟

• • •

أيـــن الســعـــادة ؟

خطاب من سيدة مجهولة لم تذكر من اسمها إلا حرف (ف) .

إحسان :

حدثنى عن السعادة . . ما هى ؟ هل وجدتها ؟ أين ؟

لقد قال الشاعر الفرنسى : « إن السعادة ابتسامة تمر على شفتيك تاركة دمعة فى عينيك . . » فهل صحيح أن لا سعادة بلا شقاء ؟

ليست السعادة فى المال . . فعندى المال ولست سعيدة . .

وليست فى الأولاد . . فعندى أولاد وبنات ولست سعيدة . .

وليست فى الحب – كما قد تقول – فإنى أحب ولست سعيدة . .

وليست فى استقرار الحياة فحياتى مستقرة ولست سعيدة . .

ولو سألتنى عن أسعد لحظات عمرى لقلت لك إنها اللحظات التى خالفت فيها ضميرى . .

فهل السعادة فى الاستغناء عن الضمير ؟ ؟

« إحسان » . . لا تلق على درساً فى الفضيلة فأنت لا تصلح لإلقـاء الدروس إنما قل لى الحقيقة . . حقيقة النفس البشرية . . فقد أستريح إذا سمعت منك أننا جميعاً ولدنا للخطيئة . .

سيدتى . .

إن السعادة معنى مجرد كالأوهام . . ليست شيئاً محسوساً ملموساً تستطيعين أن تشتريه من شيكوريل أو تستورديه من كريستيان ديور . . والإنسان لن يصل إلى المعانى المجردة إلا إذا كان هو نفسه مجرداً طليقاً حراً كالهـــواء . . ولكن الإنسان ليس معنى إنه شىء . . وهو ليس طليقاً حراً بل هو روح سجينة فى جسد وجسد مقيد إلى روح . .

فإذا حاولت الروح أن تنطلق صدتها الضلوع . .

وإذا حاول الجسد أن ينطلق جذبه الضمير . . أى الروح . .

ولهذا فالسعادة ليست فى الفضيلة ولا فى الخطيئة . . وقد تسعد الروح بالفضيلة ولكن الجسد يتعذب بها وقد يسعد الجسد فى الخطيئة وتتعـــذب بها الروح . .

إن فى كل لمسة من لمسات السعادة نفساً من الشقاء . . وفى كل لمسة من لمسات الشقاء نفساً من السعادة . . .

هكذا كتب علينا . . لأن كلا منا مجرد إنسان . . ليس ملاكاً حتى يسعد مع الملائكة ولا شيطاناً ليسعد مع الشياطين . . إنه مجرد إنسان . .

والحياة نفسها – حياة الكون كله – لا تسير نحو سعادة الإنسان . . إنما هى تسير لمجرد الاستمرار . . أن نتعاقب جيلا بعـــد جيل وأن تدور الأرض حول الشمس وأن تدور الكواكب فى أفلاكها . . بلا هدف إلا لمجرد الاستمرار . . ونحن اليوم لسنا أقل سعادة ولا أكثر شقاء من أجدادنا منذ بدء الخليقة . . ولن يستطيع العلمـــاء والفلاسفة أن يغيروا من طبيعة الحيـــاة لنعيش سعداء سعادة كاملة . .

ونصيحتى لك يا سيدتى أن تستمرى مع الحياة دون مقاومة ودون تفكير . . وأن تسعدى إذا سعدت وأن تشقى إذا شقيت . . دون أن تسألى ما هى السعادة وما هو الشقاء . .

ولا تحاولى أن تستغنى عن ضميرك فالضمير – كما قلت – هو الروح . . ولن تستطيعى أن تستغنى عن روحك . .

ولا تحاولى أن تستغنى عن خلجات جسدك . . فلن تستطيعى أن تعيشى بلا جسد . . هكذا أفعل أنا . .

وكل ما أريده هو أن أحاول دائماً أن أحب . . أحب حتى أعدائى . . فإن شقاء الحب أخف بكثير من شقاء الحقد والكراهية . .

ولعلى بهذا لم ألق عليك درساً فى الفضيلة فأنا كما تقولين لا أصلح لإلقاء الدروس . . إنما أصلح لقول الحقيقة . . والحقيقة يصعب دائماً الوصول إليها . .

• • •

هل تقرأ : الأهرام أم الأخبار أم الجمهورية ؟

لا يكفى أن تكون صحفياً ناجحاً أو كاتباً ناجحاً لتكون صاحب جريدة ناجحة . .

ولا يكفى أيضاً أن تكون صاحب رأسمال ضخم لتكون صاحب جريدة ضخمة . .

وقد كان العقاد – مثلا – كاتباً صحفياً ناجحاً يثير ضجة كل صباح عندما كان يحرر فى جريدة روز اليوسف اليومية . . ولكنه فشل عندما حاول إصدار جريدة لنفسه أسماها الضياء على ما أذكر . .

ومحمود عزمى مندوب مصر اليوم فى هيئة الأمم المتحدة كان دائماً صحفياً عبقرياً ورغم ذلك فشل فى إصدار جريدة ناجحة . .

وفكرى أباظة . . كانت جريدة الأهرام تباع باسمه عندما كتب بها ثم أصبح رئيساً لتحرير المصور وعمادها الأول فى التوزيع . . وقد مضى عليه إلى اليوم ثلاثون عاماً وهو رئيس لتحرير المصور ورغم ذلك لم يحاول إصدار جريدة لنفسه ورفض جميع العروض المغرية التى عرضت عليه لإصدار جريدة . . لأنه يعترف بأنه لا يستطيع أن يصدر جريدة . . ومن ناحية أخرى حاول السيد أحمد عبود أن يدخل برأسمال ضخم إلى ميدان الصحافة وأصدر جريدة أسماها الكشاف . . فلم تنجح وضاع رأس المال الضخم وكانت تجربة لم يحاول عبود أن يعاودها مرة ثانية . .

وحاول كثيرون من أصحاب رؤوس الأموال – وبلاش أسماء – أن يصدروا

صحفا كعمل تجارى ناجح يضفى على صاحبه نفوذاً كبيراً . . ولكن أغلبهم – أو كلهم – فشلوا . . وبعضهم عاد مشقوق الجيب مجروح الفؤاد . .

إنما إصدار جريدة ناجحة تحتاج إلى عبقرية خاصة . . ليست عبقرية الفن وحده . . ولا عبقرية رأسمال المال وحده . .

ما هى – أولا – الجريدة الناجحة ؟ ؟

هل هى الجريدة الأكثر توزيعاً ؟ إن التوزيع يقوم أحياناً على أسباب لا يمكن أن تكون عنصراً من عناصر نجاح الصحيفة.. كالإفراط فى التفاهة وقد جاء وقت كانت أكثر المجلات المصرية انتشاراً هى أشدها تطرفاً فى التفاهة..ولن أذكر أسماء.

وقد يقوم انتشار الجريدة على التضليل والكذب والتهويش أو على الإثارة الجنسية الوقحة وكلها أسباب لا يمكن أن تتخذ عناصر لنجاح جريدة محترمة . .

وقد يكون انتشار الجريدة لأسباب خارجة عن العمل الصحفى نفسه كإصدار يانصيب مغر أو التأمين على حياة القراء ضد حوادث الطريق . . كما فعلت مرة جريدة الديلى ميل الإنجليزية فارتفع توزيعها إلى مليونى نسخة وسؤال آخر . . قبل أن نعود إلى عناصر نجاح الجريدة . .

هل الجريدة الأكثر توزيعاً هى الجريدة الأكثر نفوذاً بين طبقات الشعب ؟ . . أو هى الجريدة التى تستطيع أن تثير الشعب أو تحتفظ بهدوئه أو تقيم حكومة وتسقط أخرى محتفظة دائماً بثقة القارىء وإيمانه واطمئنانه إليها ؟ ؟

لقد كانت جريدة نيوز أوف ذى ورلد تبيع ثلاثة ملايين نسخة والديلى ميل تبيع مليونين والديلى أكسبريس تبيع حوالى الثلاثة ملايين أيضاً ولم تكن التيمز تبيع أكثر من اربعمائة ألف نسخة . . ورغم ذلك ظل نفوذ التيمز أقوى من نفوذ الجرائد الثلاث مجتمعة مدة طويلة . . وأعتقد أنها لا تزال أقوى الصحف الإنجليزية نفوذاً . .

وعلى العكس . . فإن الجرائد الأكثر توزيعاً فى إنجلترا هى أبعد الصحف عن قلوب القراء وأصحابها من أوائل الشخصيات التى يكرهها الشعب وينفر منها . . ولكن القارىء – رغم ذلك – يشترى هذه الصحف لأنه يجد فيها ما يوازى قرشه أو يزيد . . تماماً كما يقبل الجمهور على الأفلام الأمريكية ويهمل الأفلام المصرية لأن الأولى تقدم له ما يستحق أجر الدخول . . بينما الثانية تعتمد فقط على وطنيته . .

ودعنا – فى هذا المجال – من الصحف المصرية . . والآن . .

ما هى عناصر الجريدة المثالية الناجحة . . التى تضمن للقارىء الأمانة والصدق وحسن التوجيه وتضمن لصاحبها عدم خرابه وضياع رأسماله ؟ . .

قرأت كتاباً لويكهام ستيد الصحفى الإنجليزى المشهور الذى تولى رئاسة تحرير التيمز فترة من الوقت . . يعدد فيه عناصر الجريدة اليومية المثالية الناجحة وهى . . بعد التلخيص . .

النجاح التجارى للجريدة ليس معناه نجاح الجريدة فالجريدة المثلى هى التى لا يؤثر عليها الجشع التجارى والرغبة فى الربح . .

يجب أن يكون ظهور الجريدة الجديدة يصحبه عدة مفاجآت بحيث ترتبك الجرائد الأخرى الموجودة فعلا ولا تفيق إلا بعد أن تكون الجريدة الجديدة قد احتلت مكانتها لدى القراء . .

نجاح الجريدة يقوم على قدرة محررها على قراءة أفكار الأجيال القادمة الناشئة ثم قيادتها إلى الطريق الذى لو عرفته لانقادت إليه . . والأجيال الناشئة ينقصها دائماً فكرة تؤمن بها وينقصها الهدف الذى تعيش له وتموت فى سبيله . . إنهم – مثلا – يلعبون الرياضة ليكونوا صالحين ولكنك لو سألتهم صالحين لماذا ؟ لما عرفوا الجواب . .

وعلى الجريدة المثالية أن تجد الجواب . . وأن تجد الفكرة والهدف . .

الجريدة المثالية تبحث عن الحقيقة وتعلنها صراحة دون خشية ودون تأثر وتسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية ولا تلف ولا تدور وتعطى الشرف لمن يستحقه حتى ولو كان من أعدائها وإن أخطأت كان خطؤها درساً لها . .

لا تقبل الجريدة إلا الإعلانات الشريفة حتى يكون فى نشرها ضمان للمعلن وللقارىء فإذا داخلها الشك فى إعلان نشرته فى صيغة التشكيك . .

لا تلجأ الجريدة إلى الوسائل التجارية كاليانصيب ونشر شهادات التوزيع والتأمين على القارىء والهدايا . . . إلخ . .

الجريدة لا تجامل أحداً ولا تشهر بأحد . .

نشر الأخبار هو واجب الجريدة الأول . .

لا تتعب القارىء فى إرساله من صفحة إلى صفحة وراء بقايا الأخبار والمواضيع كما تفعل بعض الصحف حرصاً منها على أن تضع كل العناوين فى الصفحة الأولى . .

لا تغش القارىء بالعناوين المثيرة أو بإعادة نشر أخبار قديمة فى صيغة جديدة . .

تنشر الجريدة كل الأخبار سواء كانت ضد سياستها أو مع سياستها فالحقيقة أولا . .

لا تؤيد الجريدة حكومة أو حزباً ولا شخصاً إلا إذا كان ذلك فى سبيل الشعب والشعب هو السيد والخادم الأمين للشعب هو الذى يقول الصدق دائماً لسيده . .

ويستمر ويكهام ستيد فى وصاياه التى تقوم عليها الجريدة المثالية الناجحة . . ويؤكد أن مثل هذه الجريدة تضمن توزيعاً كافياً لأن تستمر وإعلانات كافية لموازنة الميزانية . .

ورغم ذلك فويكهام ستيد لم يصدر جريدة لنفسه وإذا اقتنعت بكلام الصحفى العالمى المشهور فحاول أن تختار جريدتك الصباحية : الأهرام أو الأخبار أو الجمهورية . .

ملحوظة : كتبت أسماء الصحف الثلاث حتى لا أغضب أحداً بترتيب أقدميتها . .

كيف تختار المبدأ السياسى الذى تؤمن به ؟

كيف وجدت كل هذه المبادىء السياسية التى يتصارع حولها العالم ؟ وكيف ظهرت ألفاظ الشيوعية والرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية والديكتاتورية .

كل هذا وجد لأن إنساناً سأل نفسه فى أوقات فراغه : ما هى علاقة الفرد بالدولة ؟

وأفلاطون عندما وضع كتابه « الجمهورية » لم يفعل أكثر من أن سأل نفسه هذا السؤال . .

وكارل ماركس وإنجلز عندما وضعا نداءهما المشهور الذى يبدأ بالهتاف المعروف : « يا صعاليك العالم اتحدوا » كانا يسألان نفس السؤال . .

وأنت تستطيع أن تلغى من ذاكرتك كل هذه المبادىء وكل هذه الألفاظ ثم تسأل نفسك :

« ما هى علاقتك بالدولة ؟ » وعندما تجد الجواب ستجد المبدأ الذى تؤمن به . . وقد يكون أحد المبادىء المعروفة وقد تصل إلى مبدأ جديد لم يسمع به العالم من قبل . .

اسأل نفسك مثلا : ما هو واجب الدولة عندما تريد أن تتزوج ؟ . .

هل من واجبها أن تعد دفاتر للزواج تسجل فيها زواجك ؟ أم يكفى أن تقف

الدولة من بعيد تراقبك وأنت تعقد زواجك بمجرد الإيجاب والقبول أمام شاهدين كما تنص الشريعة الإسلامية ودون عقد ؟ . .

وهل من حق الدولة أن تتقاضى ضريبة على زواجك كرسم تسجيل ؟ . .

وهل من واجبها أن تعد فتيات الأمة كلها وتثقفهن ثقافة خاصة لتصلح كل منهن للزواج بك ؟ أم أن الدولة غير مسئولة عن إعداد الفتيات للزواج وأنت بعد ذلك حر فى تحمل مسئولية اختيارك ؟

ثم هل من حقك على الدولة أن تعد لك البيت الذى ستعيش فيه مع عروسك وتؤثثه لك ؟ وهل تكون جميع البيوت التى تعدها الدولة متساوية ؟ أم أن الدولة غير مسئولة عنك سواء عشتما فى قصر أم عشتما فى خيمة ؟

وبعد أن تنجب أطفالا هل الدولة مسئولة عن إعالتهم وتربيتهم وإعدادهم للحياة ؟ أم أنت وحدك المسئول عن أولادك ؟ . . ومن حقك – مثلا – أن تنشئهم فى المدارس الفرنسية أو المدارس الجريكية إن لم تعجبك المدارس المصرية ومن حقك أيضاً أن تتركهم بلا تعليم إطلاقاً ما دمت تريد ذلك أو ما دمت لا تستطيع أن تدفع لهم مصاريف المدارس ؟ أم أن مسئولية تعليم الأولاد توزع بين الدولة وبينك فالدولة مسئولة عن تعليمهم إلى حد معين وعليك أنت الباقى . .

ثم . .

هل من حق الدولة أن تمنعك من الزواج إذا كنت مريضاً مثلا بمرض وراثى أو إن كنت ضعيفاً أو إن كنت مجرماً . .

إذا أردت الطلاق . . هل يكفى أن تترك زوجتك وتمشى ؟ أم يجب أن تبلغ الدولة بأنك طلقت ؟ أم واجب الدولة أن تمنعك من الطلاق إلا إذا وقفت أمام القاضى وتقدم له من الأسباب ما يقنع الدولة بالطلاق ؟

هذه الأسئلة البسيطة التى تدور حول زواجك ينتهى جوابها إلى أحد المبادىء التى سمعت عنها ودرستها . . قد ينتهى الجواب إلى الرأسمالية وقد ينتهى إلى الاشتراكية أو إلى الشيوعية وينتهى بالتالى إلى اختيار شكل الدولة التى تؤمن بها سواء كانت دولة ديمقراطية أو ديكتاتورية أو دولة . . نص نص . .

وعندما تسأل نفسك ما هى علاقتك بالدولة ؟ لا تدخل فى تفكيرك الألفاظ الرنانة العامة . . كلفظ الحرية . . أو العدالة . . أو المساواة . . . إلخ . .

إنها مجرد ألفاظ . .

ألفاظ تدل على حقيقة واحدة مجسمة تتفق عليها كل الآراء . . فالحرية ليست بناء مثلا لا يختلف إثنان فى أنه بناء وليست سيارة أو يختلف اثنان فى أنها سيارة . . إنما هى معنى وهى لا نحس به ولا نلمسه إلا فى مدلولاته وتطبيقاته . . كالكهرباء مثلا فأنت لا ترى الكهرباء ولم يرها أحد من قبلك ورغم ذلك فالكهرباء موجودة فى مدلولاتها وتطبيقاتها . . فى النور الذى يضاء وفى الراديو وفى التلفزيون . . . إلخ . .

والحرية لها ألف مدلول وألف تطبيق وكلها رغم الاختلاف الكبير بينها يمكن أن يتمتع كل منها بلقب : حرية . .

مثلا . .

أنت حر فى أن تذهب إلى الطبيب ولا تعترض الدولة على ذهابك إليه بل إنها ترصف الطريق إلى عيادته وتعين عساكر بوليس حتى لا يعتدى أحد على حقك فى علاج نفسك . . هذه حرية لا شك . .

ولكن رغم أن الدولة تضمن لك حريتك فى الذهاب إلى الطبيب فإنك قد لا تكون حراً فى الذهاب إليه لأنك لا تملك قيمة الفزيتة التى تدفعها له . . إذاً

فالحرية فى هذه الحالة هى أن تجعل الدولة أجر الطبيب زهيداً بحيث لا يزيد عن خمسة قروش حتى تكون حراً فى الذهاب إليه . . وهذا شكل آخر من أشكال الحرية . .

ولكنك رغم ذلك أيضاً قد لا تكون حراً فى الذهاب إلى الطبيب لأنك لا تملك الخمسة قروش التى تدفعها له إذن فيجب أن تتولى الدولة علاجك بالمجان إذا أرادت أن تضمن لك حريتك فى الذهاب إلى الطبيب وهذا مدلول ثالث للفظ الحرية . .

ولكن مرضك قد يكون خطيراً حتى يتعارض مع حرية الآخرين فى أن يعيشوا أصحاء . . قد تنقل إليهم العـدوى وقد تتزوج فتنجب أطفالا مرضى يلوثون الشعب ويضعفون الجنس الذى تنتمى إليه . . إذن فالحرية – حرية الآخرين – لا تسمح لك بالذهاب إلى الطبيب ولا تسمح لك بالعلاج حتى يتم شفاؤك ما دمت قد لا تشفى فيجب أن تقتل أو تعقم أو تعزل عن الحياة . . وهذه نظرية رابعة لتفسير الحرية . . نظرية كان يؤمن بها هتلر وأمثاله . .

وهذه التطبيقات المختلفة للفظ الحرية تنتهى إلى فوارق كبيرة فى المبادىء السياسية ونظم الدولة . . فالحرية الأولى هى الحرية الرأسمالية والحرية الثانية هى الحرية الاشتراكية والحرية الثالثة – إذا طبقت على كل الناس – هى حرية الشيوعية والحرية الرابعة هى حرية الحاكم المجنون . .

فلا يكفى أن تنادى بالحرية منساقاً وراء الجموع بل يجب أن تختار لنفسك تطبيقاً من تطبيقات الحرية ، تجـد فيه إيمانك وتعرف على ضوئه طريقك وطريق أبنائك وأحفادك . .

الزوجة العاقلة

كتبت مرة أن مهمة وزير المالية لا تختلف فى شىء عن مهمة ربة البيت وأن جميع الدفاتر والسجلات والأضابير التى تحتفظ بها وزارة المالية لا تزيد فى شىء عن الدفتر الصغير الذى تحتفظ به ربة البيت المنظمة والذى يسمى دفتر المصروف . . وإن جميع التعابير الاقتصادية الجافة التى تتردد على ألسنة الاقتصاديين فى العالم كله لا تعنى شيئاً أكثر مما يعنى لفظ إيراد ولفظ منصرف . .

والواقع أن الحكومة كلها بكل وزرائها وبكل أداتها لا تقوم بأكثر مما تقوم به ربة البيت . . فوزير الأشغال ووزير البلـديات – مثلا – لا يقومان بأكثر من مهمة الزوجـة فى تنظيف وتجميل البيت ووزير المعارف لا يقوم بأكثر مما تقوم به الزوجة من تعليم أولادها المشى ونطق الكلمات ووزير التجارة يقـوم بدور الزوجـة عندما تشترى لوازم البيت من السوق ثم توزعها على أفراد العائلة . . . إلخ . .

والفرق الوحيد هو الفرق بين البيت الصغير الذى يضم أفراد عائلتك والبيت الكبير الذى يضم أفراد الأمة كلها . . وهو الفرق بين إيرادك ومصروفك الخاص وإيراد ومصروف الأمة كلها . .

والفرق بين مهام ربة البيت ومهـام قائد الجناح عبد اللطيف البغدادى هو الفرق بين الكوريدور الذى يصل بين الصالة وغرفة النوم داخل البيت وبين شارع فؤاد – ٢٦ يوليو – حالياً الذى يصل بين الزمالك والعتبة الخضراء داخل القاهرة .

وأنت عندما تفكر فى الزواج لن تبحث عن فتاة كل شروطها أن تكون غنية جداً بل إنك – ما دمت رجلا معتزاً بشخصيتك قائماً لمصالحك – سترفض الزواج من هذه الغنية جداً حتى لو كنت تحبها لأنك لو تزوجتها فلن تفهم عقليتك ولن تفهم حاجياتك المعيشية ولن تفهم عاداتك ولن تستطيع بالتالى أن تدبر إيرادك بحيث تصرف كل قرش من قروشك فى محله وستضطر إذا لم تطلقها أن تعيش على ما يحسن به والداها عليك . . والإحسان تأباه النفس الأبية وأنت – كما أرجو – أبى النفس . .

إنما ستختار زوجتك من درجة قريبة من درجتك ومن بيئة قريبة من بيئتك بحيث تشترك معك فى عقليتك وتفهم كيف تدبر شئونك وكيف تحقق السعادة لك ولأولادك فى حدود إيرادك .

وكذلك عندما تختار الحكومة التى تثق بها فأنت لا تختار حكومة لأن وزراءها أغنياء لا يفهمون إلا مصالح الأغنياء ولايحسون إلا بإحساس الأغنياء ولايفكرون إلا بعقلية الأغنياء . . بل إنك قد تثور على مثل هذه الحكومات كما ثرت على حكومات العهد الماضى لأنها كانت حكومات مبذرة تخدم الأغنياء وعلى رأسهم الملك ولا تحس بما أنت فيه من فقر وجوع . .

وعندما تتسلم زوجتك منك مصروف البيت فى أول كل شهر سيكون أول ما تفكر فيه وأول ما تسأل نفسها عنه هو ماذا أشترى أولا ؟ وعلى قدر إجابتها على هذا السؤال – وهو سؤال ليس هيناً – تستطيع أن تحكم على درجة ذكاء زوجتك ودرجة غيرتها على مصالحك . .

فإذا كان البيت فى حاجة إلى خزين . . خزين أرز ولكنها بدلا من أن تشترى الأرز اشترت بالنقود زجاجة عطر أو إذا كان ابنك فى حاجة إلى حذاء ولكنها بدلا من أن تشترى الحذاء اشترت لنفسها زوجين من الجوارب النايلون . . فإنك تستطيع فى هذه الحالة أن تطلقها غير نادم . .

وكذلك الحكومة . . فإذا كان الأفراد فى حاجة إلى الغذاء أو فى حاجة إلى مدارس . . ولكن الحكومة بدلا من أن تصرف ميزانيتها على الغذاء والأدوية والمدارس صرفتها على استيراد عقود الماس وأقراط اللؤلؤ وأساور الذهب . . فهى حكومة غير مدبرة لا يمكن أن تتقدم بالأمة أو تسعدها . . ولذلك فإن الثورة أول ما فكرت فى رفع مستوى الأفراد . . رفعت الضرائب على الكماليات بفئات باهظة لأن البيت الكبير فى غنى عنها فإذا وجد من بين الأفراد من يصمم على اقتنائها – اقتناء هذه الكماليات – فيجب أن يدفع أضعاف ثمنها الأصلى للدولة حتى تشترى به بعض الضرورات الأولية التى يحتاج إليها بقية الأفراد . .

ولكن زوجتك قد تعجز عن تحقيق المساواة بين أفراد العائلة نظراً لضآلة مرتبك وهى فى الوقت نفسه لا تستطيع أن ترسل أحد أولادها إلى المدرسة ولا ترسل آخر أو تشترى ثياباً لأحدهم ولا تشترى لآخر وفى هذه الحالة ستطلب منك أن تستغنى حتى عن الكماليات كأن تطلب منك الإقلاع عن التدخين أو ترجوك أن تذهب إلى مقر وظيفتك سيراً على قدميك أو عدم التردد على القهوة لتوفر القرش الذى تدفعه هناك . . وقد تزداد الحالة سوءاً فتبدأ الزوجة فى الاستغناء عن بعض الضروريات وبدل أن تسأل نفسها ماذا تشترى أولا تجدها تسأل نفسها عم أستغنى أولا وقد تضطر أخيراً إلى بيع قطع الأثاثات الجميلة التى تجذب بها الأصدقاء ، كما باعت الثورة مخلفات فاروق التى كان المفروض أن تبقى لتجذب السياح ثم لا تجد الزوجة وسيلة بعد ذلك إلا أن تفكر معك كيف تزيد إيراد البيت بأن تدفعك إلى البحث عن عمل إضافى أو تبحث هى عن عمل لنفسها لتضيف إيرادها إلى إيرادك وتتمكن بذلك من تحقيق المساواة بين أفراد العائلة . .

وكذلك الحكومة أيضاً . . فهى تتبع فى خطواتها نحو الاشتراكية أى نحو

المساواة بين أفراد البيت الكبير نفس ما تتبعه الزوجة العاقلة .. ضغط المصروفات وزيادة الإيرادات ..

وزيادة الإيراد وسيلته تسمى التصنيع ..

ويوم تصل الحكومة إلى حد أن يصبح المصروف والإيراد نتيجة تحقيق المساواة الكاملة بين أفراد الشعب كله ستكون قد حققت الاشتراكية ..

وبعدها .. قد تستطيع أن تشترى عقود الماس وأقراط اللؤلؤ وأساور الذهب .. ويصبح لكل منا سيارة وتليفزيون وفريجيدير..

قل .. يا رب ..

• • •

الفن والمال

الكائن الحي الوحيد الذى لا أناقشه هو السيدة فاطمة اليوسف ولا أناقشها لإنى أخافها وأخافها لإنى أحبها .. ولكن السيدة فاطمة اليوسف لا تقدر فضيلة الخوف ولا تؤمن بأن الخوف نوع من الحب حتى لو كان خوفاً عليها وعلى أعصابها وعلى حسن ظنها بى .

وفى الاسبوع الماضى أدليت بحديث لمندوب الإذاعة قلت فيه أن الفن فى مصر ينقصه المال .. المال لترتقى بالمسرح .. والمال لترتقى بالسينما .. والمال لترتقى بالفنان ..

واستمعت السيدة فاطمة اليوسف إلى هذا الحديث ثم ضغطت على الجرس الذى يصل مكتبها بمكتبى وقالت فى هدوء وأنا واقف بين يديها ابن مطيع وتلميذ صغير .

— الفن فى مصر ينقصه الفنان ..

قلت فى استسلام :

— حاضر ..

وبهذا انتهت المناقشة ..

ولكن كلمة حاضر ظلت واقفة فى حلقى كالشوكة ووجدت نفسى مضطراً لأن أكمل المناقشة بينى وبين نفسى ..

هل صحيح أن الفن فى مصر لا يحتاج إلا الفنان ؟

هل ظهر اليوم ممثل مسرحى فنان – كل فن – يستطيع أن ينهض بالمسرح ؟ كيف ؟

أين يجد المجال الذى يظهر فيه ؟ وكيف يبنى مسرحاً لنفسه لائقاً للتمثيل ؟ وكيف يكون فرقة محترمة تحيط به ؟ وكيف يستأجر مواهب الفنانين الذين يبنون له الديكور ويعدون له الملابس . . . إلخ ؟ . .

وإذا ظهر مخرج سينمائى عظيم فى فنه أين يجد الاستوديو الكامل الذى يعمل فيه ؟ وأين يجد الوسائل التى يمكنه بها أن يلقن الممثلين والممثلات كيف يمثلون ؟ وأين يجد الكاتب والسيناريست الذى يرضى بأن يتفرغ له دون أن يدفع له ما يكفى حياته ! ؟ . .

وإذا وجد أديب فنان – كله أدب وكله فن – هل يستطيع أن يتفرغ لأدبه وفنه ويعيش عليهما ؟ . . إن طه حسين وتوفيق الحكيم لم يستطيعا أن يعيشا على أدبهما أو يتفرغا له بل وجد كل منهما لنفسه وظيفة تعينه على الحياة ويقتطع فى سبيلها جزءاً من وقته ومن فكره ومن أعصابه التى كان يجب أن يهبهما كلهما للفن . .

إنه الفقر الذى يطمس الفن فى مصر . . وليس المعنى من ذلك أن الفنانين فقراء . . فأم كلثوم تخطو نحو المليون الأول بسرعة . . وعبد الوهاب ارتفع رصيده حتى لم يعد يعلم ماذا يصنع به . . وفريد الأطرش أصبح يملك من العمارات بعدد ألحانه أو على الأصح أفلامه . . وأنور وجدى بينه وبين عبود فركة كعب . .

ولكن ثراء الفنانين لا يعنى ثراء الفن . . وإذا أقام فريد الأطرش عمارة أو اشترت أم كلثوم « حتة أرض » فليس معنى هذا أن الفن قد ارتقى . . وقد يكون هذا صحيحاً لو أن أم كلثوم فكرت فى بناء مسرح حديث فخم يحمل اسمها بدل المرمطة بين سينما ريفولى ومسرح الأزبكية والسرادقات التى تقام لحفلاتها . .

وقد يكون هذا صحيحاً لو أن عبد الوهاب فكر فى إنشاء أستوديو كامل المعدات الحديثة وأتى له بالخبراء أو لو أنه فكر فى إخراج فيلم ينفق عليه بحساب آخر غير حساب « القطارة » . . أو لو فكر فريد الأطرش فى إقامة معهد موسيقى فخم يتولاه أساتذة عالميون أو لو جمع أنور وجدى فريقاً من كبار الأدباء وتحمل نفقات تفرغهم للنهوض بالقصة السينمائية . . أو . . . إلخ .

والفنان كما قلت كالجوهر لا يمكن اكتشافه إلا إذا حفرنا الأرض من حوله ورفعنا منها آلاف الأطنان من الأتربة والطين ثم شذبناه وصقلناه ثم وجدنا الحسناء التى تتحلى به . . وعمليات الحفر ورفع الأتربة والتشذيب والصقل وإيجاد الحسناء . . كل ذلك يحتاج إلى مال . .

ولكن الفن الآن فى مصر ليس فيه جواهر . . فيه أتربة وطين . . ولا يدخله إلا كل فتى صايع وكل فتاة مغامرة . . الناجحون فيه نجحوا بالحداقة والفاشلون فشلوا لسوء الحظ لا لأنهم ليسوا فنانين . .

ليس فيه جواهر لأن الجواهر لها ثمن . . والثمن غير موجود ولأن الحسناء التى تعشق الجواهر لم تظهر بعد . . كلهن حسناوات يعشقن الصفيح والزجاج . .

وحالة الفن فى مصر اليوم كحالة الصحافة منذ ثلاثين عاماً قبل أن تكون فيها رؤوس الأموال لترتقى بها وتكشف عن جواهرها . .

كانت الصحافة تقوم على بعض الأقلام المعروفة . . العقاد وطه حسين والمازنى . . كما يقوم الفن الآن على بعض الأسماء اللامعة . . عبد الوهاب وأم كلثوم وأنور وجدى . . . إلخ . .

وغير هذا لم يكن فى الصحافة شىء . . لا مطابع ولا آلات ولا فرق كاملة من الفنانين ولا علماء . . لم يكن سوى فريق واحد من الشحاذين . . جعلوا

الصحافة مهنة لا تشرف صاحبها ولا تصون احترامه ولا يقربها رجل متعلم محترم . .

هكذا الفن اليوم . .

بقى شىء . .

كيف تحصل للفن على المال ؟

هل تقدمه الحكومة ؟ . . لا . . ألف مرة لا . . إنما تقدمه شركات إما أن أن تتألف من كبار الفنانين الذين يملكون ثروات أو تتألف من رؤوس أموال جديدة تدخل المجال الفنى بقصد الاستثمار . .

ويوم يحدث هذا . . سيقضى على الفقر الفنى المتمثل فى هذا الإنتاج الفردى الضعيف الهزيل الذى لا يكلف صاحبه سوى ثلاثة آلاف جنيه يدفع الموزع عليها سبعة آلاف ويبيع النسخ مقدماً بألف أخرى . . وهذا هو رأس المال كله . .

يوم يحدث هذا . . لن تستطيع فاتن ولا زينات صدق ولا مديحة يسرى ولا ماجدة ولا محسن سرحان ولا عماد حمدى . . ولا أحد من كل هؤلاء أن يقدم على الإنتاج الفنى وحده معتمداً على التصلقة أو الفلسفة أو الحداقة والابتسامة الحلوة . .

وقولوا عنى بعد ذلك إنى رأسمالى رجعى . .

وأنا أفضل أن أكون رأسمالياً من أن أرى الفن يذبح أمام عينى . .

« ملحوظة » قرأت السيدة فاطمة اليوسف ما كتبته . . وقالت إن هذا ما كانت تقصده لأنه لو كان أحد من أصحاب الأسماء اللامعة فناناً حقاً لوهب الفن كل ربحه . .

• • •

فن .. ولا فن

طلب منى يوسف السباعى أن أعد بحثاً فى الأدب لألقيه فى مؤتمر الأدباء المنعقد فى دمشق ورفضت لأن الأدب عندى ليس بحثاً . . ولكنه إنتاج . . إنه قصة أو قصيدة وليس بحثاً . . إنه فن وليس نقاشاً . .

وأنا لا أحاول أن أضع إنتاجى الأدبى ضمن إحدى المدارس الأدبية . . لست هادفاً ولا غير هادف . . ولست رومانسياً ولا واقعياً ولا صريحاً ولا سيريالياً ولا برجوازياً ولا بروليتارياً . .

وقد يضعنى النقاد فى هذه أو تلك ولكنى عندما أكتب لا أضع نفسى فى إحداها بل أحرر نفسى من كل هذه القيود وأهدم كل هذه الخوائط وأنفض عن رأسى كل ما قرأته من أبحاث . . ثم أكتب . .

وليس عندى إلا أساس واحد للأدب أومن به أساساً لم يتغير ولم يتبدل منذ كتبت أول قصة فى تاريخ الإنسان . . ولم تستطع كل حذلقة أصحاب الأبحاث أن تغير منه شيئاً . . هذا الأساس هو الإنسانية نفسها . . أن يكون أدباً إنسانياً صادقاً . . أن يعرض الإنسان على حقيقته بكل ما فيه من خير وشر فالأديب ليس قاضياً ليحكم على القاتل بالإعدام بل هو يعرض نفسية القاتل فى أمانة ولو انتهى عرضه بتبرئته مخالفاً القاضى والقانون والدين أيضاً . .

والأديب ليس سياسياً . . ليس مطلوباً منه أن يكون شيوعياً أو اشتراكياً أو رأسمالياً كل ما هو مطلوب منه أن يكون إنساناً صادق الإحساس . . وتحيز

الأديب لأحد هذه المبادىء يلوث أدبه وفنه ويجعله يرى الإنسان بعين واحـــدة ونصف قلب ونصف إحساس . .

هذا رأيى . . وهو رأى يغضب الكثيرين من الذين يحاولون أن يلبسوا الأدب العربى أزياء مستوردة من روسيا أو من أمريكا . . لمجرد أنها أزياء شغل إبرة والأديب الذى ينقاد لهذه المحاولة يصبح كالفتاة الغبية التى تنتقى لنفسها ثوباً لمجرد أنها رأت صورته فى إحدى مجـلات الأزياء ودون أن تستعمل ذوقها الخاص وتقدر ذوق الناس الذين ستبدو أمامهم ودون أن تقارن بين جسدها وجسد المانيكان التى رأت صورتها فى المجلة . . فقد تكون سمينة لا تصلح لارتداء البنطلون وقد تكون معضمة لا تصلح لثوب عارى الأكتاف . .

وإذا كان لابد من تقسيم الأدب إلى مدارس فإنى لا أعترف إلا بتقسيمه حسب موطنه . . أدب روسى وأدب ألمـانى وأدب أمريكى وأدب فرنسى وأدب عربى . . والتقسيم هنا ينصب على المجتمع الذى يصوره الأدب ، وعلى اختلاف العقليات واختلاف الذوق الفنى بين كل وطن وآخر . .

والجهود التى تبذل فى ترقية الأدب العربى يجب أن تنحصر فى جعله أدباً عربياً ليس فيه الروسى أو الفرنسى أو الأمريكى . . أدباً عربياً صرفاً ينبع من صميم المجتمع العربى . . ويعطى صورة صادقة للإنسان العربى فى ظروفه . . وفى مشاكله وفى عقليته وفى نفسيته . . و . . صورة صادقة لا تصور بطولات كاذبة ولا تخلق إنساناً خيالياً مثالياً . . بل هو الفرد العربى كما هو . .

ويوم يصل الأدب العربى إلى هذه الدرجـة من الصدق فى التعبير عن المجتمع العربى سيصبح عالمياً . . والأدب العالمى ليس هو الأدب الذى يصور أجواء العالم المختلفة بل هو الأدب الذى يصور مجتمعاً واحداً تصويراً واضحاً يعطى للعالم

صورة صادقة عن هذا المجتمع . . وجميع الكتاب العالميين عرفهم العالم عندما كتبوا عن وطنهم والمجتمع الذى نشأوا فيه . . وكتبوا بصدق . .

ثم هناك تقسيم أعم للأدب . . التقسيم الذى لا يستطيع أحد من المتحذلقين أن يقاومه : أدب جيد وأدب ردىء . . فن أو لا فن والأدب الجيد يقرأ . . والردىء لا يقرأ . . والفن يعيش . . واللافن يموت . .

* * *

فن الزنوج

جلست مع سيدة زنجية من ترينيداد . .

الشفاة الغليظة . . والأنف الأفطس . . والجبهة الضيقة . . والرأس الصغير . . والشعر الأكرت ورغم ذلك فإنها جميلة . . جمال خصب ملتهب كأرض خط الاستواء . . جمال يطن فى أذنيك كحفيف مزارع قصب السكر ويأخذك إلى دنيا غامضة كأنك فى حلبة لصيد الوحوش . . ويملأ عينيك منها بلون بشرتها فكأنك تنظر إلى قدح ملىء بالقهوة الساخنة اللذيذة تكاد من فرط اغرائه أن تمد شفتيك وتأخذ منه شفطة . .

إن ترينيداد جزيرة صغيرة من جزر الهند الغربية تقع وسط البحرين الأمريكتين الشمالية والجنوبية . . وهى مستعمرة بريطانية تزرع السكر والكاكاو والبن ويعتصر فيها الروم وهو نوع من الخمر كأنه اللهب الساخن . . وعدد سكانها لا يزيد عن نصف مليون يضمون بينهم مجموعة عجيبة من المغامرين الإنجليز والفرنسيين والأسبانيين والهنود والزنوج . .

والزنوج هناك هم أتعس الطبقات ومن بينهم السيدة التى جمعتنى بها إحدى ليالى القاهرة . .

وتقول الأنسكلوبديا إن جزيرة ترينيداد تبدو من بعيد كأنها صخرية جرداء ولكنك لا تكاد تجتاز حاجز الصخور حتى تجد نفسك فى الجنة . . تماماً كالسيدة

التى عرفتها فلا تكاد تجتاز بعينيك الحاجز الجاف الذى ترسمه الشفتان الغليظة والأنف الأفطس والشعر الأكرت حتى تجد نفسك فى الجنة . . جنة الفن . .

إن كل عصب فيها يلتقط الجمال أينما كان حتى لو لم تره العين وكل خلجة من خلجاتها كأنها رادار يلتقط الأنغام من حولها ويؤثر بها فى كيانها كله . . إنها تسمع صوت عجلات الترام فترتبك خطواتها مع ارتباك الأنغام الصدئة التى تخرج من تحت العجلات . . وتسمع صوت النسيم مع الأغصان فى شارع الجزيرة فترق وتتهافت كأنها تستجدى النسيم أن يتلاعب بغصنها وتسمع الموسيقى فترقص — حتى ولو كانت جالسة — ما دامت الموسيقى راقصة وتبكى إذا كانت الموسيقى باكية وتضحك إذا كانت الموسيقى ضاحكة . . ثم تخلو إلى نفسها فتنقر بأصابعها نقرات خفيفة فوق المائدة وتغنى أغنية حزينة من بلدها مطلعها :

إنى جالسة على شاطىء المحيط لأنى تعيسة لا أملك ما يكفى لأعود إلى بلدى فى ترينيداد وتستمر فى أغنيتها على وقع نقرات أصابعها كأنها تعيش فى حلم بعيد ترويه بدموعها ثم تصمت قليلا .. وفجأة تضرب المائدة ضربات عنيفة سريعة وتغنى كأنها تصرخ بابا لو . . وهى أغنية أخرى من ترينيداد تروى عذاب الزنوج تحت ضربات السياط ..

إن هذه الأغانى — أغانى الزنوج فى ترنيداد — اكتسحت أمريكا كلها . . اكتسحت البيض لا الزنوج فحسب وكل فتاة بيضاء هناك تغنى كليسوبلوز وبابا لو وورومبا كيرو . . . إلخ . .

وكل فتاة بيضاء ترقص رقصات الزنوج السامبا والمامبو والووجى . . . إلخ . .

وليس فى أمريكا فن إلا فن الزنوج . .

ولا تصدر أمريكا من الفنون إلى العالم كله إلا فن الزنوج . .

لمـــاذا ؟

لأن الزنوج فى أمريكا هم وحدهم – باستثناء الهنود الحمر – الذين لهم شخصية معينة مميزة احتفظوا بها منذ سرقهم تجار الرقيق من وسط الغابة وجاهدوا فى الاحتفاظ بها وسط بحور العـذاب التى خاضوها حتى اليوم ولم تستطع كل القوى التى اجتمعت عليهم أن تفقدهم هذه الشخصية حتى المسيحية التى أمرهم أسيـادهم باعتناقها لم تستطع أن تتغلب على شخصيتهم الأصلية فهم يقرأون الإنجيل فيصابون بهوس كأنه هوس رجـل الغابة ويسمعون التراتيل الدينية المسيحية فتضج أجسادهم من تأثيرها حتى تتلوى ويصبحون فى حركاتهم كأنهم عبدة النار يقذفون إليها بضحية جديدة . .

أما باقى سكان أمريكا الذين وفـدوا إليها من إنجلترا وفرنسا وألمـانيا وهولاندا . . إلخ . . فقد فقدوا شخصيتهم الذاتية بمجرد اجتماعهم بعضهم ببعض لم يعد الإنجليزى إنجليزياً ولم يعـد الفرنسى فرنسياً ولم يعـد الألمانى ألمانيا . . إنما أصبحوا جميعاً يكونون شيئاً جديداً اسمه أمريكا لم تتكون شخصيته بعـد . . شيئاً يحاول أصحابه جاهدين أن يوجدوا له فناً خاصاً قائماً بذاته وحضارة قائمة بذاتها وهم فى سبيل ذلك يصممون مثلا على ارتداء القمصان المشجرة لأنه ليس هناك شعب آخر بلغ من قلة الذوق الفنى إلى حد ارتدائها . .

وإلى أن يفلح سكان أمريكا فى إيجاد شخصية مميزة لهم – وسيفلحون على مر السنين – ستظل أمريكا خاضعة لفن الزنوج وموسيقى الزنوج ورقصات الزنوج . . لأن الفن هو تعبير عن شخصية وليس فى أمريكا اليوم شخصية قومية أقوى من شخصية الزنوج بحيث تستطيع أن تتغلب عليها . .

إنى أحنى الرأس للشفاه الغليظة والأنوف الفطساء والشعر الأكرت . . لأنى أحترم الفن الذى يعبر عن شخصية أصيلة . . حتى ولو كانت شخصية الزنوج . .

الحرية.. مجموعة من الواجبات يطالب بها المجتمع

إن أى طريق تسير فيه ستجد نفسك مضطراً إلى أن تتنازل عن جزء كبير من حريتك وجزء كبير من حقوقك الفردية . .

وكلما اخترت الطريق الأصوب أو الطريق الأكثر صلاحية للرقى ببلدك كلما وجـدت نفسك مضطراً لأن تتنازل عن جزء كبير من حريتك وجزء كبير من حقوقك . .

لم تعـد الحرية هى حرية الفرد . .

إنما هى حرية المجمـوع . .

ولم تعـد الحرية هى مجموعة من الحقوق تطالب بها لنفسك . .

بل أصبحت مجموعة من الواجبات يطالب بها المجتمع . .

ولا فرق – بناء على هذه النظرية – بين وضعك منذ آلاف السنين عندما كان يحكم الدولة فرد واحد وبين وضعك فى العالم الحـديث إذا وجدت نفسك فى دولة شيوعية مثلا التى يعتبرها أصحابها أرقى النظم السياسية والاقتصادية وأكثرها تقـدماً . .

فأنت تفقد الجزء الأكبر من حريتك الشخصية وحقوقك الفردية فى كلتا الحالتين تفقدها إذا كان يحكمك حاكم اقطاعى فردى وتفقدها إذا عشت فى ظل نظام شيوعى تقـدمى . .

ولكن الفرق الوحيد – وهو فرق كبير – هو أنك فى الحالة الأولى تتنازل عن حريتك وعن حقوقك لصالح فرد واحد لا يمثل إلا نفسه وفى الحالة الثانية تتنازل عن حريتك وحقوقك فى سبيل المجموع الذى أنت فرد فيه . .

وحول هذا المعنى دارت معركة البشرية منذ بدء الخليقة . . فبعد أن كانت السلطة فى يد فرد يستغلها لصالح نفسه ويغتصبها بقدر قوته . . أى بعد أن كان كل فرد يستطيع أن يكون حكومة قائمة بذاتها لها كافة السلطات ولا تمثل إلا نفسها . . أصبحت الحكومة تمثل العائلة . . ثم أصبحت تمثل القبيلة . . ثم أصبحت تمثل طبقة الأقلية الإقطاعية أو الرأسمالية . . ثم أصبحت تمثل الأغلبية – أى المجموع . .

وتبعاً لذلك أصبح الأفراد يتنازلون عن جزء كبير من حرياتهم لا تحت ضغط القوة ولا تحت ضغط طغيان الحاكم الفرد بل لاقتناعهم بأن الحكومة التى يتنازلون لها عن حقوقهم هى حكومة تمثل المجموع وتعمل لخير المجموع وحرية المجموع . .

أقول هذا الكلام لأنك يجب أن تقتنع به إذا أردت أن تكون اشتراكياً أو على الأقل إذا أردت أن تفهم معنى مبادىء الاشتراكية . .

فالاشتراكية ليست مبدأ عاطفياً يترك لك الحرية فى أن تعيش كما تشاء وتكسب كما تشاء بشرط أن تعطف على الفقراء . . بالعكس فإن الاشتراكية – كما قلت فى العدد الماضى – لا تعطف على الفقراء ولا تحقد على الأغنياء . بل هى تكره الفقر ولا تشفق عليه إنما تقضى عليه لأنها تعتبره مرضاً خطيراً يصيب الأمة كلها . .

فإذا تبرعت بنصف مالك للفقراء أو وزعت أرضك – من تلقاء نفسك – على الفلاحين أو دعوت خدمك للجلوس معك على مائدة واحدة . . ثم اعتبرت نفسك بعد ذلك اشتراكياً فأنت مخطىء . .

إن الاشتراكية تكره الإحسان وترفضه وتعارضه . . لأنه يجرح شعور الفقراء وينمى الكبرياء الخبيثة فى صدور الأغنياء ثم إنه يترك الفقر على حاله . . إن الإحسان أو الجمعيات الخيرية هى وسيلة أشبه بمعالجة السرطان بأقراص الأسبرين . .

ثم من يدريك إنك لو أعطيت نصف مالك لفقير سيستغله لمصلحة المجموع أو حتى لمصلحة نفسه . . ربما يبعثر هذا المال على موائد الخمر أو القمار أو استهلكه فى تدخين الحشيش أو تزوج به أربع نساء . . كما حدث خلال الحرب عندما ارتفعت أجور العمال . .

ومن يدريك أن الفلاح الذى منحته أرضك يستطيع استغلالها ومن أين له رأس المال الذى يشترى به البذور والبهائم والسماد . .

ثم من يدريك أن الخدم يفضلون أن يجلسوا معك على مائدة واحدة . . وربما كانوا يستثقلون دمك وربما كان جلوسك معهم – بالنسبة لهم – نوعاً من العقاب يتحملونه رغم أنوفهم فى سبيل الأجر الذى تدفعه لهم . .

إن الاشتراكية لا تقوم على العاطفة ولا على الإحسان ولا تترك لك حرية الخيار . .

إنها تقوم على سلسلة ضخمة متشعبة من القوانين تفرضها الدولة وتضطر للخضوع لها ما دامت الدولة تمثل المجموع وما دامت الاشتراكية هى إرادة المجموع . . ولن تستطيع فى هذه الحالة أن تدعى أنك محسن كبير أو فاعل خير . . لأنك ستكون مضطراً رغم أنفك وبحكم القانون إلى الإحسان للمجموع كله . . فإذا عصيت وقعت تحت طائلة القانون وإذا تماديت فى عصيانك اتهمت بمحاولة قلب نظام الحكم . .

وهذه القوانين الاشتراكية ستأخذ منك جزءاً كبيراً من حريتك ومن حقوقك الشخصية .. وستتنازل أنت عن هذا الجزء راضياً كريماً ما دمت مؤمناً بالاشتراكية وما دمت مؤمناً بأن واجب الدولة أن تعمل لخير المجموع لا لخير الأفراد ..

إنك مثلا — فى ظل هذه القوانين — لا تستطيع أن تكون مليونيراً ولا تستطيع أيضاً أن تكون فقيراً .. حتى لو كنت غاوى فقر ..

ولن تستطيع مثلا — أيضاً — أن ترسل ابنك ليتعلم فى إنجلترا أو فرنسا إلا إذا رأت الدولة أن ابنك قد ظهرت عليه من علامات العبقرية ما يؤهله لإتمام تعليمه فى إنجلترا ليعود فى خدمة المجموع ..

وهى — كما قلت — قوانين متشعبة لن تقتصر على الناحية الاقتصادية بل ستمتد إلى أدق شئونك الخاصة .. ستمتد إلى الصحافة .. فإن الصحافة اليوم — فى أغلب بلاد العالم — تمثل مبدأ واحداً هو الرأسمالية لأنك لا تستطيع أن تصدر صحيفة إلا إذا كنت صاحب رأسمال ضخم وستخصص جريدتك بالطبع لخدمة مصالحك ولن تسمح لى مثلا بأن أكتب فيها هذه السطور التى أكتبها الآن لأنى أدعو إلى الاشتراكية التى تتعارض مع مصالحك ..

لذلك فإن الدولة الاشتراكية ستتدخل فى شئون الصحافة بفرض عدة قوانين بحيث ينخفض ثمن الورق فأستطيع أن أبيع لك روز اليوسف بقرش صاغ بدلا من ثلاثة قروش حتى تصل الدعوة الاشتراكية إلى أكبر عدد من القراء أو قد تؤمم المطابع فأستطيع أن أصدر جريدة يومية دون حاجة إلى شراء مطبعة تكلفنى مائة ألف جنيه أو دون حاجة إلى أن أدفع أجر مغالياً فيه يعجزنى عن إصدار الجريدة .. وليس معنى ذلك أنى شخصياً — فى هذه الحالة — سأكسب من إصدار الصحيفة بحيث أصبح فى خلال عدة سنوات رأسمالياً آخر فإن الدولة الاشتراكية ستستولى على الجزء الأكبر من أرباح الجريدة عن طريق الضرائب لتستغله لصالح المجموع وتحقق به المساواة بين الأفراد .. وستقل أرباحى كثيراً —

فى ظل الاشتراكية — عما هى عليه الآن حتى لو أصبحت دار روز اليوسف تصدر عشر صحف ومجلات ..

ومن هذا تفهم لماذا تحارب الصحف الكبرى — فى جميع أنحاء العالم — الاشتراكية وتتهم أنصارها بأنهم شيوعيون ومخربون وهدامون .

وقس على الصحف جميع وسائل النشاط الاجتماعى .. الإذاعة .. المدارس .. المساجد .. المصانع ... إلخ ..

وأقرب مثل لتشعب القوانين الاشتراكية بحيث تشمل جميع نواحى الحياة .. هو ما حدث عند إعلان مشروع الإصلاح الزراعى .. فإن الدولة لم تكتف بإصدار قانون واحد يحدد الملكية وينظم توزيع الأراضى على الفلاحين بل أعقبت ذلك بعدة قوانين كثيرة تنظم الإيجارات وتنظم الجمعيات التعاونية وتنظم توزيع الحبوب عن طريق بنك التسليف وتنظم عمليات بيع المحصول وتنظم إرشاد الفلاح إلى الوسائل الزراعية وإلى طرق رفع مستواه الثقافى والصحى ... إلخ ..

ولكن ما هو الهدف الأخير من كل هذه القوانين الاشتراكية ..

الهدف : هو المساواة ..

المساواة الكاملة ..

والذى يعتقد أن الاشتراكية هى ما يسمونه تكافؤ الفرص أى أن تعطى لكل فرد الفرصة لأن يكون مليونيراً مثلا .. ثم هو وشطارته .. الذى يعتقد هذا الاعتقاد ليس اشتراكياً إنما هو مضلل يريد أن يضحك على الناس بتعبير لا معنى له ..

فإن الاشتراكية تقوم على المساواة بمعنى المساواة الحقيقية البسيطة والفرص لن تتكافأ أمام الأفراد إلا إذا كان هؤلاء الأفراد متساوين أولا فى رأس المال وفى الدخل ..

ثم إذا أعطيناك الفرصة لتكون مليونيراً فمعنى ذلك أننا حرمنا عشرات أو آلاف غيرك من أن يكونوا من أصحاب الملايين لأنك لا تستطيع أن تزيد مالك إلا إذا أخذت هذه الزيادة من جيب غيرك سواء أخذته بطرق مشروعة أو غير مشروعة ..

وكل ما تسمح به الاشتراكية من فروق بين الأفراد هو أن يتحركوا بين حد أدنى للدخل وحد أقصى .. أى أن يكون الحد الأدنى لك ثلاثين جنيهاً فى الشهر مثلا ويكون الحد الأقصى ٥٠٠ جنيه – مثلا أيضاً – فإذا قل دخلك عن ثلاثين جنيهاً نتيجة انقطاعك عن العمل عوضتك الدولة فى صورة خدمات تقدمها لك .. وإذا زاد دخلك عن ٥٠٠ جنيه أخذت الدولة هذه الزيادة فى صورة ضرائب وإعادتها إلى المجموع فى صورة خدمات ..

وهذه هى أكثر صور الاشتراكية تساهلا ..

ولكن كيف تتحقق هذه المساواة ؟؟

إننا رداً على هذه التساؤل سنضطر إلى التحدث فى الاقتصاد السياسى .. وقد كرهت دائماً كلمة الاقتصاد وخصوصاً كلمة اقتصاد سياسى إلى أن علمت أن هذا الاقتصاد السياسى ليس سوى صورة مكبرة للطريقة التى تدبر بها زوجتك وزوجتى مصروف البيت .. كل ما هناك أن الحكومة – فى الاقتصاد السياسى – هى التى تقوم بدور الزوجة ..

بقى أن نعرف كيف تستطيع الحكومة أن تكون زوجة ذكية مدبرة تحقق السعادة والمساواة بين جميع أفراد العائلة .. العائلة المصرية ..

• • •

الرخاء والحرمان ..

إننا نردد عدة شعارات دون أن يكون لها معنى محدود فى أذهاننا .. الحرية .. الرخاء .. الشخصية المستقلة .. القومية العربية .... إلخ .. كلها شعارات نؤمن بها .. ونبنى بها حاضرنا ومستقبلنا دون أن نحدد معناها .. وعدم تحديد معان لهذه الشعارات يجعلها تقع فى أيد ملوثة تستطيع أن تضللنا بها ، وتستعملها ضدنا ..

إن أمريكا تعد العالم بالحرية .. ولكن الحرية التى نؤمن بها غير الحرية التى تدعو إليها أمريكا ..

وأمريكا تعد العالم بالرخاء .. ولكن الرخاء الذى نسعى إليه غير الرخاء الذى تسعى به إلينا أمريكا ..

وقد سبق أن نشرت روز اليوسف عدة أبحاث عن الحرية .. وأتمنى لو يشاركنى زملائى مرة أخرى فى تحديد معنى « الرخاء » ..

إن بيننا من يعتقد أن الرخاء هو أن يتضاعف عدد أصحاب الملايين المصريين وأن يباح السفر إلى الخارج .. وأن نستورد البارفان من باريس والقماش الصوف من إنجلترا واللبان والسيارات من أمريكا ..

ليس هذا هو الرخاء .. إنه منتهى الفقر .. الرخاء لا يتحقق بازدياد أصحاب الملايين بل يتحقق بارتفاع الدخل الفردى لمجموع الشعب .. دخل الفلاح والعامل

الصغير والتاجر والموظف . . ولا يتحقق الرخاء بإباحة السفر إلى الخارج لعـــدد من الأفراد القادرين ، بل يتحقق عندما يستطيع كل فرد فى مصر أن يسافر إلى الاسكندرية أو إلى رأس البر . . وليس من علامات الرخاء أن تستورد البارفان من باريس بل علاماته أن تصنع البارفان والسيارات والقماش الصوف فى مصر . .

الرخاء ليس معناه أن يكون بيننا أغنياء بل معناه أن نكون أمة غنية . .

وقد ذهب تاجر كبير من تجار السجاجيد يشكو للرئيس جمال عبد الناصر كساد تجارته . . إنه لا يجد المشترين للسجاد الإيرانى والبخارى والشنواه . . وهو يعتقد أن الحالة الاقتصادية زفت . .

ونصحه الرئيس بألا يعتمد فى تجارته على نفس الطبقة التى كان يعتمد عليها قبـــل الثورة . . طبقة الاقطاعين الذين كانوا يدفعون الألف جنيه فى سجادة لا تزيد مساحتها على متر طولا ونصف متر عرضاً . . وأن يحاول أن يبيع السجاد للشعب وأن يكون بالثمن الذى يتحمله الرجل العادى . .

واقتنع التاجر بالنصيحة ، واتجه بتجارته اتجاهاً جـــديداً . . اتجه إلى عشرات الألوف من الناس بعد أن كان يعتمد على أفراد معـــدودين من الأثرياء . . فافتتح مصنعاً للسجاد المحلى . . سجاد يصنع فى مصر من خامة مصرية بأيدى عمال مصريين . . وبدأ يبيع للألوف . . فربح وزاد ربحه عمـــا كان عليه قبل الثورة . . واقتنع بأن الحالة الاقتصادية عال . .

وهذا هو مظهر من مظاهر الرخاء . .

وسيكتمل الرخاء عندما يكون عندنا من المصانع ما يكفى لاستيعاب الأيدى العاملة بحيث لا يكون بيننا عاطل . . وعندما تنشىء من المدارس ما يكفى الناس

كلهم بحيث لا يكون بيننا جاهل . . وعندما نبنى من المستشفيات ما يكفى المرضى كلهم حتى لا يكون بيننا مريض . .

ولن يتحقق هذا الرخاء إلا بعـــد فترة حرمان طويل . . بعد تقتير على أنفسنا لنسخوا على مشروعاتنا الجديدة . .

والذين يؤمنون بالحرمان هم الذين يبشرون بالرخاء . .

• • •

الممثلة والكاتب

كانت فاتن حمامة تحدثني عن عمارتها الجديدة التي تبنيها في مصر الجديدة وسألتها .. بلا حسد :

— لماذا تستطيع الممثلة أن تبني من أرباحها ، ولا يستطيع الكاتب أن يبني ولو كوخاً إننا لم نسمع عن كاتب واحد بنى عمارة من الكتابة مهما بلغ نجاحه في حين أن معظم الممثلات الناجحات أصبحن صاحبات عمارات ..

وقالت فاتن :

— إن الممثلة لا تعيش فنها طويلا .. إنها كالوردة تذبل سريعاً .. بضع سنوات ثم تصبح خردة لا تصلح للظهور على الشاشة وهي لذلك تستحق أجراً كبيراً بحيث تجمع في هذه السنوات القليلة ما يكفيها العمر كله .. أما الكاتب فهو يظل يكتب طول العمر ويظل يربح من وراء فنه طول العمر .. ولو جمعت ما يربحه الكاتب في عمره الطويل لكان أضعاف ما تربحه الممثلة في عمرها القصير ..

ولم أقر فاتن على رأيها ..

إن الممثلة الفنانة لا تذبل أبداً .. وقد بلغت الممثلة الأمريكية بتي ديفز الخامسة والستين من عمرها ولا تزال نجمة لامعة تمثل أدوار الشابات .. وفاتن لن تذبل لأنها لا تعتمد في أداء أدوارها على جمالها ولا على فتنتها إنما تعتمد على فنها والفن لا يشيخ .. إن الفن شباب دائم .. وبعد ثلاثين عاماً سنرى

فاتن على الشاشة كما نراها اليوم وربما تؤدي نفس الأدوار .. أدوار الفتيات .. وقد كانت سارة برنارد في الأربعين من عمرها وهي تؤدي على المسرح دورها في مسرحية اليتيمتين .. دور صبية صغيرة ..

والممثلة التي تذبل هي الممثلة التي تجتذب جمهورها بجمالها وإغراء فتنتها لا بفنها ! .. وهذه تذبل سريعاً لا بحكم السن بل بحكم الملل .. إن الجمهور يمل الجميلات سريعاً ..

وكذلك الكاتب .. نفس الوضع فالكاتب الذي يجتذب جمهوره بالمنطق الجميل يختفي سريعاً ويمله قراؤه .. أما الكاتب الفنان الذي يعتمد على الفكرة ويستطيع أن يعكس تطورات المجتمع على صفحة نفسه ثم يصور مشاكله بقلمه .. هذا الكاتب لا يذبل أبداً إنما يظل يكتب طول عمره وتجتذب إليه الأجيال جيلا بعد جيل ..

ولم تقتنع برأيي .. ربما لمنع الحسد عن عمارتها ..

أيام بلا زوجة

لم يكن يعتقد أن فى حياته اليومية العادية كل هذه المشاكل .. إلى أن سافرت زوجته إلى المصيف وتركته وحده فى القاهرة ..

إن اختيار البدلة والكرافتة والقميص يستغرق أكثر من عشر دقـــائق .. والرد على السؤال البسيط تأكل ايه النهارده يستغرق من تفكيره ربع ساعة .. ومحاسبة الطباخ نصف ساعة .. و .. و .. واكتشف أنه نسى أن يرسل ثيابه الداخلية إلى الغسيل فخرج وهو يلبس بدلته على اللحم واكتشف أنه لم يرسل قمصانه إلى المكوجى فاضطر أن يلبس قميصه ثلاثة أيام حتى أصبح القميص فى لون جلده الأسمر .. ثم اختفت جواربه لا يدرى أين وفوجىء بأن أنبوبة معجــون الأسنان قد فرغت وان ليس عنده أمواس حلاقة واضطربت حياته فى بيته واضطربت حياته فى عمله ..

وعندما عادت زوجته انحنى فى خشوع يقبل يدها .. فلم يكن يدرى أنها مهمة فى حياته إلى هذا الحد ..

• • •

الفراغ عند القمة

الفتاة الطموحة لا تستطيع أن تحب .. إن طموحها يغلف عواطفها وأنوثتها حتى لا تعود تراها أو تحس بهما .. وكلما اشتد طموحها بعـــدت عن عواطفها وأنوثتها ..

وقد روت لى قصتها .. قصة فتاة فى السادسة عشرة من عمرها أحبت .. وكان يمكن أن تسعد بحبها .. ولكن طموحها غلف هذا الحب بغلاف سميك فلم تعـد تحس به وظنت أنها تستطيع أن تستغنى عنه .. وسارت فى الطريق الطويل الذى اختارته لنفسها .. الطريق الذى لا ينتهى .. ولم يعـد الرجال فى حياتها سوى درجات سلم تصعد عليه وبعضهم غذاء لابد منه .. إلى أن وصلت .. أو تعبت من كثرة الصعود فاستراحت على إحدى القمم .. واسترخى طموحها وبدأ الغلاف السميك يتزاح عن عواطفها .. وعادت تحس بالحب .. نفس الرجل الذى أحبته وهى فى السادسة عشرة .. وبدأت تتساءل : هل أخطأت عندما ضحت به فى سبيل طموحها .. وبدأت تحس بالندم .. تحس أنها ضيعت عمرها فى سبيل أوهام .. إن كل ما وصلت إليه أوهام .. الشهرة والمـــال والنجاح .. كلها أوهام .. إن الحقيقة الوحيدة فى حياتها قد ضيعتها .. الحقيقة الوحيدة فى الحياة كلها هى الحب ..

وخرجت تبحث عنه .. نفس الفتى الذى ضيعته .. ووجدته فى الثامنة والثلاثين من عمره .. قوياً يافعاً لا يزال فى مرح صباه ..

وتقدمت إليه فى خطى مرتجفة وعيناها معلقتان بوجهه الأسمر . .

ونظر إليها وكأنما يتذكر شيئاً ثم قال :

— ياه . . مالك عجزت كده . . اللى يشوفك يقول عليك أكبر منى . .

وأحست كأنه طعنها . . إنها فعلا تبدو عجوزاً . . لقد امتص طموحها شبابها وكل حيويتها . . وتركها ثفلا كالبرتقالة الممصوصة . .

وقالت فى صوت مرتعش :

— حدثنى عن نفسك . .

ولم يحدثها وإنما جذبها من يدها كأنها طفلة وسار بها إلى بيته . . بيت متواضع ليس كبيتها . . ليس فيه تحف كريستال ولا مقاعد أوبيسون . . ولكن فيه ضحك ومرح وطيبة وحب . . زوجته تضحك . . وأولاده يضحكون . . والمقاعد الخشبية تضحك . .

وقال لزوجته وهو يقدمها إليها : ألا تعرفينها . . إنها حبى الأول . .

وقالت زوجته فى مرح : أهلا . . أنا حبه الأخير . .

وعادت إلى قصرها الأنيق . . إلى الوحشة والفراغ . . والندم . .

أسعد زوجين

احتفل أسعد زوجين فى مصر بعيد زواجهما الثانى عشر . .

ما سر هذه السعادة التى لم تنقطع يوماً واحداً خلال اثنى عشرة سنة ؟

السر . . هو عدم الفراغ . .

الزوج يذهب إلى مكتبه فى الصباح . . ويعود إلى بيته فى الظهر ليقبل زوجته من وجنتها ويبادلها كلمتين حلوين ثم يتناول غداءه ويستريح فى فراشه ، ثم يقوم ليعود إلى مكتبه وينتهى منه فى الساعة التاسعة فيصحب زوجته إلى السينما أو يعود إلى بيته ليقرأ كتاباً . . ثم يجد كل منهما نفسه بين ذراعى الآخر . .

والزوجة تجد دائماً ما تعمله فى بيتها . . لقد تزوجته وهو فقير فكانت تطبخ وتكنس وتغسل الصحون بنفسها . . ثم أصبح غنياً وأصبح لها طباخ وسفرجى ودادة . . ولكنها — رغم ذلك — لا تزال تشرف على المطبخ بنفسها ولا تزال تجلس مع أولادها لتناولهم الطعام . . ولا تزال تستذكر معهم الدروس ولا تزال تعد ثياب زوجها بنفسها وتنتقيها له بذوقها . . إنها دائماً تجد ما تعمله فإذا انتهت من كل شىء جلست بجانب الزوج وهو يقرأ وبين يديها إبر التريكو . .

ليس فى حياتهما فراغ يترك مجالا لمشكلة تثور بينهما أو يشيع فى نفس أحدهما الملل من الآخر أو الملل من البيت أو الملل من الحياة . .

وليس فى حياتهما فراغ يفتح باباً لتدخل الأصدقاء فى شئونهما الخاصة . . فالأصدقاء بالنسبة لهما صورة جميلة . . والصورة تبدو أجمـل إذا نظرت إليها من بعيـد . .

وليس فى حياتهما فراغ تحتله الأهل وتستغله حماتها أو حماته فكل منهما يقدس أهله ويقدس – على الأخص أمه – والأشياء المقدسة توضع فوق الرؤوس ولا توضع على الأرض حتى لا تصطدم بها الأقـدام . .

وليس فى حياتهما فراغ يترك للزوجـة وقتاً لتفتش جيوب زوجها أو يترك للزوج وقتاً ليحصى على الزوجـة خروجها ودخولهـا إنما ازدحـام الحياة حولهما جعل كلا منهما مضطراً لأن يثق فى الآخر وهو مطمئن إلى أن ثقته فى محلهـا . .

إن الانتصار على الفراغ هو سر سعادتهما والفراغ هو العـدو للأزواج والزوجـات . .

ريـاضـة روحيـة

إنى مريض هذا الاسبوع . . وقد بلغ عدد الأدوية التى أمر لى الطبيب بها خمسة أدوية كلها بعـد الأكل . . وبلغ عدد أصناف الأكل التى سمح لى بها صنفاً واحـداً . .

إنى مريض وفى رأسى مطـارق لا تكف عن تعذيبى . . وفى أمعـائى ألم لا يرحمنى . . ورغم ذلك فإنى أكتب . . أكتب عن الحب . . وأكتب عن المبادىء السياسية وعن الأدب . . و . . و . . وأنام فوق مكتبى فى الساعة الثالثة صباحاً . .

لمـاذا لا أستريح . .

لا أدرى . . ولكنى كلما تعـذبت اندفعت إلى قلمى . . إنه كل ما أملك من قوة إنه سلاحى الوحيـد . . أتحدى به العـذاب وأتحدى به مصرانى الغليظ . .

لا . . إنى لا أتحدى بل إنى أتوسل إلى المجهول ليرحمنى . . أتوسل بتعـذيب نفسى فوق الورق . . إن هذا التعذيب نوع من الرياضة النفسية أو نوع من اليوجا التى يتوسل بها الهنود للسيطرة على أجسادهم . .

إن العمل عبادة . . وأنا أعبد الله فى عملى . . لعله ينصرنى على صداعى . . أدعو لى . .

النظـــارة الســـوداء ..

بعض الناشرين وكثير من القراء يلحون فى إصدار طبعة ثانية من قصتى النظارة السوداء . .

وقرأت القصة فى الأسبوع الماضى ولم أكن قد قرأتها منذ كتبتها أى منذ أربع سنوات . . وأحسست وأنا بين الصفحات أنى شاهدت صورتى وأنا بالبنطلون القصير . .

إن شعراتى البيض ليس لهـا أثر فى السطور والتجاعيد التى تحت عينى لا تبدو مع الكلمات . . لقد كنت فى هذه القصة - ومنذ أربع سنوات فقط - شاباً مندفعاً جريئاً . . يملى إرادته فى بساطة وقوة دون أن يهمه شىء ودون أن يحسب حساباً لأحـد ودون أن يشعر أنه مسئول عن تفسير إرادته . . إنه يلقى بآرائه كأنها أوامر فمن أطاع فأهلا وسهلا ومن تردد فى طاعته فالويل له . .

وأحسست أنى أريد أن أكتب القصة من جديد . . أن أضع فيها شعراتى البيض والتجاعيد التى تحت عينى وألبسها البنطلون الطويل . .

إنى ما زلت مؤمناً بالمبادىء التى تقوم عليها هذه القصة وما زلت مؤمناً بالهدف الذى تسعى إليه والصراحة التى كتبت بها . . ولكنى أشعر أنى أستطيع أن أصل بها إلى أعماق أبعـد وأستطيع أن ألقى عليها أضواء أكثر وأستطيع أن أفتح فيها نوافذ جديدة لذهن القارىء . .

هل أفعل ؟ . .

إنى لو فعلت لأصبحت قصة جديدة غير القصة التى يريد الناشرون والقراء إعادة طبعها . . وإن لم أفعل لبدت شخصيتى الحالية التى يراها القارىء فى قصصى الجديدة ناقصة مبتورة . . وقد وقع فى هذه الحيرة جميع الكتاب وأذكر أنى قرأت مقدمة لطبعة ثانية من كتاب لكاتب لا أذكره الآن - لعله برتراند رسل أو هـ . د لورنس - أبدى فيها هـذه الحيرة ثم نشر صورته عندما أصدر الطبعة الأولى وصورته عند إصدار الطبعة الثانية وقال : إن الفرق بين الطبعتين هو الفرق بين الصورتين . .

ورغم ذلك فإنى أفضل أن أترك القصة كما هى فإنى ما زلت أحب شبابى الذى ذهب منذ أربع سنوات فقط . . وبالمناسبة إن أمنيتى فى الحياة أن أصبح كاتب قصة هل أستطيع أن أحقق أمنيتى . . إنى أعلم أن الطريق لا يزال طويلا وشاقاً . .

الشموع المطفأة

أول يناير . .

إن عيد ميلاده يوافق يوم الاحتفال بعيد رأس السنة وقد تعود أن يحتفل كل عام بيوم ميلاده وكان يحاول دائماً أن يقنع نفسه بأنه سعيد الحظ إذ يولد فى يوم يحتفل العالم كله به . .

وكان يحاول دائماً أن يبدو سعيداً فى ذلك اليوم وأن يضحك وأن يضع قلبه على كف يده ليقدمه لكل من يعبر حياته . .

ولكنه لم يستطع أبداً أن يكون سعيداً ، وخصوصاً فى ذلك اليوم . .

إنه يشعر فى كل مرة يحتفل فيها بعيد ميلاده إنه نادم على ما فات وخائف مما هو آت . . وهو يشعر دائماً أنه فشل وسيفشل وإن كان الناس يعتقدون ويؤكدون أنه نجح وسينجح . .

إنه فاشل إذا قاس أعماله بما يريد أن يعمل . . وناجح إذا قاس أعماله بما يريد منه الناس أن يعمل . وهو إذ يقلب أوراق حياته تبدو له أيامه كلها سوداء لا يرى منها نوراً يهديه إلى الطريق الذى أتى منه أو الطريق الذى سيذهب فيه . .

ولكن عن أى طريق يبحث ؟ وأى هدف يريد أن يصل إليه ؟ هل يريد أن يصبح كاتباً ؟ هل يريد أن يصبح مشهوراً ؟ هل يريد أن يصبح غنياً ؟ هل يريد أن يصبح سياسياً ؟ . .

إنه لا يدرى . . لا يدرى أين يذهب . . ولا من أين أتى . . لقد وجد نفسه يكتب دون أن يتعمد أن يكتب . وقد أمسك بقلمه لأول مرة وهو فى الرابعة من عمره وخط خطوطاً لا معنى لها على ورقة بيضاء . فسأله والده باسماً « ما هذا الذى تخطه » ؟

فأجاب فى سذاجة الأطفال « إنها أعواد من القش » ! !

ونظر الوالد إلى الخطوط التى خطها الابن فوجدها حقيقة تمثل أعواد القش . . فابتسم فرحاً فخوراً بأبنه الذى استطاع أن يرسم « القش » فى مثل هذه السن ! !

ولكن الابن عندما رسم خطوط القش لم يكن يقصد أن يرسمها وإنما أجرى قلمه على الورق بلا فكر وبلا هدف ثم نظر ليرى النتيجة فإذا بها أعواد من القش . .

وهو من يومها يجرى قلمه على الورق ويترك له العنان ليكتب ويكتب وليس له من دافع إلا هواجس نفسه ونبضات قلبه ، ولو أغمض عينيه وهو يكتب لكانت النتيجة واحدة فهو لا يكتب بعينيه ولا برأسه إنما يكتب بأعصابه وروحه وبعد أن ينتهى من الكتابة ينظر إلى الورقة ليرى ماذا كتب ويفاجأ كما يفاجأ أى قارىء عادى وكأنه ليس صاحب القلم الذى كتب . . والناس تعجب بما يكتب كما أعجب به والده عندما رسم أعواد القش وهو فى الرابعة من عمره ، وقد تطور هذا الإعجاب حتى وصل به إلى مرتبة الشهرة ، وأصبح الناس يعتبرونه كاتباً بين الكتاب وأصبحوا يثقون به ويدعونه صاحب رسالة وينتظرونه كل أسبوع على صفحات الجريدة التى يكتب فيها ، ولكنه هو نفسه لا يعجب بنفسه ولا يحس بالشهرة التى وصل إليها ، لأنه لا يعتبر نفسه كاتباً بل يعتبر نفسه طفلا بلا عقل . يجرى قلمه على الورق بلا إرادة وبلا وعى ولتكن النتيجة ما تكون . .

وهو يخشى ثقة الناس به لأنه يعتقد أن هذه الثقة ليست قائمة على أسس فى نفسه يستطيع أن يتحكم فيها بل هى قائمة على ذلك الإلهام

الذى يدفع بقلمه على الورق دون وعى منه وهو إلهـام لا يستطيع أن يتحكم فيه ولا أن يحركه عندما يريد ، بل هو نوع من النبضات العصبية التى تثور فى نفسه ثم تسرى إلى يده فترتفع من تلقاء نفسها لتمسك بالقلم وتكتب ، ولذلك فهو يخشى أن ينتظره أحد ليقرأ ما يكتب لأن هذا الإلهـام لا يتقيد بمواعيد صدور الجريدة ولا بمواعيد المطبعة ، بل هو يتحرك فى أوقات لا ينتظرها هو نفسه ، وقد لا يتحرك أبداً ، قد يمر أسبوع ويده لا تريد أن تمتد إلى القلم ، فى حين أنه يجب أن يكتب لأن المطبعة تنتظر . . وهنا تمر عليه أسوأ أيام حياته فهو لا يستطيع أن يكتب عندما يريد بل إن أصدقاءه الخصوصيين يعلمون عنـه أنه لا يعرف من قواعد اللغة العربية ما يكفى لأن يضع كلمات بجانب بعضها تتكون منها جملة مفيدة . . أنه فى هذه الحالة يجن وقد يبكى ، وأحياناً يرق إلهامه لدموعه فيدفع قلمه ليكتب ، وأحياناً يعصاه إلهامه فيتخفى عن الناس وعن أصحاب جريدته معتذراً بمرض أو بحدث . .

فهو إذن ليس كاتباً فى نظر نفسه وإن كان كاتباً فى نظر الناس ! !

هل يريد أن يكون سياسياً ؟ . .

إنه لم يشعر بنفسه سياسياً أبداً، بل إنه يرى أحياناً فى السياسة معميات يصعب عليه فهمها ويضل فيها عقله ، وهو ينظر إلى السياسيين وكأنهم قوم غرباء عنه ليس لهم عقليته ولا روحـه ، وحينا يجلس بينهم يحس أنهم يتكلمون لغة لا يفهمها بل ويمقتها . . ولكنه إن أنكر على نفسه صفة السياسى فلا يستطيع أن ينكر أنه وطنى وهو يفهم الوطنية كما يفهمها رجل الشارع . . يفهمها واضحة جلية مستقيمة كحد السيف،فلا يحاول أن يدس بوطنيته فى سواد الدبلوماسية ولا فى همسات الدوائر العليا . .

وهذا الفهم للوطنية لا يحتاج إلى ذكاء نادر ولا إلى موهبة شاذة ، ولا إلى فكر خارق للعادة ، بل هو فهم بسيط لا يتميز به عن أى رجل ساذج من الشعب ،

بل إن الفلاح فى حقله قد يقيس الوطنية بأقوال العمدة ، والعامل فى مصنعه قد يقيسها بما يطالب به من تحسين حاله . . أما هو فوظيفته مجردة لا تكلفه إلا أن يحس ، فهو يطالب بالجلاء — مثلا — بنفس الطريقة التى يحاول بها كلب مقيد أن يحطم قيده ولو أحس كل أفراد الشعب بأنهم كلاب مقيدون لتم الجلاء منذ عشرات السنين ! !

ورغم هذه البساطة أو السذاجة التى يفكر بها ويكتب بها فى شئون وطنه فإن الناس قد اعتبروه سياسياً واعتبره البعض سياسياً داهية ! ! . . فحملوا ألفاظه أكثر مما كان يعنيه وأخذوا حملاته التى لا يدفعـه إليها إلا وميض أعصابه ونور قلبه ، أخذوها مآخذ شتى ليست وطنية بل سياسية ! . . وخرج من ذلك بمبدأ آمن به وهو : « كلما كنت بسيطاً كلما بدوت معقداً فى نظر الناس ويوم أن تكون معقداً ستبدو بسيطاً » ! !

هل يريد أن يكون غنياً ؟

لقد صار فعلا غنياً لو أن الغنى يقاس بالمال ، فقد كان دخله منذ عامين خمسة وعشرين جنيهاً فى الشهر ، ودخله فى شهر ديسمبر الحالى وصل إلى مائتين وخمسين جنيهاً — بلا مبالغة — ولكنه منذ عامين كان يصرف ثلاثين جنيهاً فى الشهر ، وهو اليوم يصرف ثلاثمائة جنيه،فهو غارق فى الدين فى كلتا الحالتين ، وهو فى كلتا الحالتين ليس سعيداً . . وكلما زاد دخله كلما كلفه بحثه عن السعادة أكثر . .

إنه إذن كاتب وليس بكاتب ، مشهور وليس بمشهور سياسى وليس بسياسى ، غنى وليس بغنى ، وهذا هو سر روحه التائهة ، وقلبه القلق ، وفكره الشارد ، والسؤال الذى يبحث عنه هو :

— هل أنا لا أقدر نفسى حق قدرها ، أم أن الناس يقدروننى أكثر من قـدرى ؟ ! !

إن سيدة واحدة تشاركه البحث عن هذا السؤال . وهى لا تبحث عنه بين الناس بل تبحث عنه فى نفسه . وكلما ظنت أنها وصلت إلى غور نفسه بدت لهـا فيه أغوار جديدة . إنه يخشى عليها أن تتوه معه . وهى تخشى عليه أن يتوه منها ! !

إنها السيدة الوحيدة التى تحتفل معه بعيد ميلاده . فتصمت معه طول الليل لتتركه يحاسب نفسه . فإذا ما انتهى من الحساب وهو عسير . بكى وضمها إلى صدره ثم حمد الله ! !

احتــــراف

أعلنت الثورة على نفسى ابتداء من يوم الثلاثاء الماضى الساعة الثالثة صباحاً ، وكنت ساعتها جالساً إلى مكتبى أكتب مقالا عن الموقف السياسى ، وفجأة توقفت ورفعت رأسى عن الورق فإذا بى أواجه نفسى لأول مرة منذ أسابيع قضيتها أنا وقلمى بعيدين عن نفسى ، وإذا بسلسلة اتهامات تنهال على ، كان أشنعها وأخطرها اتهامى بأنى فى طريقى لأن أكون كاتباً محترفاً . .

وما كادت تتضح لى حقيقة هذه التهمة حتى سقط القلم من بين أصابعى وامتدت يدى إلى الورق تمزقه وكأنها تمزق أوراق تحقيق فى جناية تلبس . .

هل أنا حقيقة كاتب محترف ؟ . .

ولكن كيف لا أكون محترفاً ، وأنا أكتب الموقف السياسى فى ثلاث جرائد أسبوعية ، وأكتب المقال الافتتاحى فى جريدتين أسبوعيتين ، وأراجع مقالات فى ثلاث جرائد . وأعطى رؤوس مواضيع لتوزع أسبوعياً على خمسة وعشرين محرراً يعملون فى جريدتين أسبوعيتين ، ومسؤول عن الأخبار الكبيرة فى ثلاث جرائد احداها يومية (والأخبار الكبيرة تعبير ابتكره أدجار جلاد بك ويقصد به خبر استقالة الوزارة أو خبر ترقية عباس أفندى الأشمونى إلى الدرجة السابعة ! !) . .

كيف لا أكون محترفاً بعد ذلك ؟ ؟ بل كيف لا أكون تاجراً من تجار اللب والحمص ؟ بل لماذا لا أسمى نفسى : إحسان الصاوى محمــد . وأنتهى ! ! وأسمى نفسى : إحسان عبد القادر المازنى . وعلى رحمة الله ! ! . .

إني محترق ونص .. محترق جداً .. وبدأت السياط القاسية تنهال على نفسى التى تعيش بين جنبي ، سياط الفن الذى لم يكلفنى شيئاً بل ولدت به وعشت فى كنفه ورغم ذلك خنته ، وسيرت قلمى لأرضى غرورى قبل أن أرضيه ..

نعم .. كان السبب هو الغرور ، فقد كنت أقيس نجاحى بعـدد أصحاب الصحف الكبيرة الذين يتقدمون إلى فى تودد ويغروننى بالعمل معهم بكل ما يملكون من وسائل الإغراء وكنت أقبل عروضهم فى سبيل إرضاء هذا الغرور ، محاولا إقناع نفسى بأنى بذلك أفتح لقلمى ميادين جديدة ..

وقد فتحت عدة ميادين جديدة ، وكانت النتيجة أن عجز قلمى عن أن ينتصر نصراً حاسماً فى واحد من هذه الميادين .. وأصبح يكتب ليصد قوات العدو لا ليقضى عليها .. أو بمعنى آخر أصبح يكتب ليرضى القراء لا ليرضى نفسه .. وغالباً ما يرضى القراء على ما يستخفه الكاتب ! !

وانتهت ثورتى على نفسى بأن بدأت أختصر من ميادين العمل وبدأت أعود ثانية لأحس بقلمى عندما أحتضنه بين أصابعى وأرقص به على الورق فى بهو الفن الهادئ المحرم الدخول إليه على الجماهير .. !

لقد عادت إلى نفسى التى فرت منى خلال الأسابيع الماضية .. عادت إلى وقد غفرت لى .. عادت إلى بعد أن طهرت نفسى من الاحتراف .. عادت لتستريح فى صدرى .. صدر الفنان .. ولأنعم بها لا أريد منها ولا تريد منى إلا أن نعيش لنكتب ، لا أن نكتب لنعيش .. !

الفهـــــــرس

رقم الإيداع ٣٠٤٠ / ٨٠
الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ – ٧٢٣٠ – ٨٤ – ٢